جول رونار

مغامرات الفتى «أصهب»

رواية



ترجمها عن الفرنسية
محمد علي اليوسفي

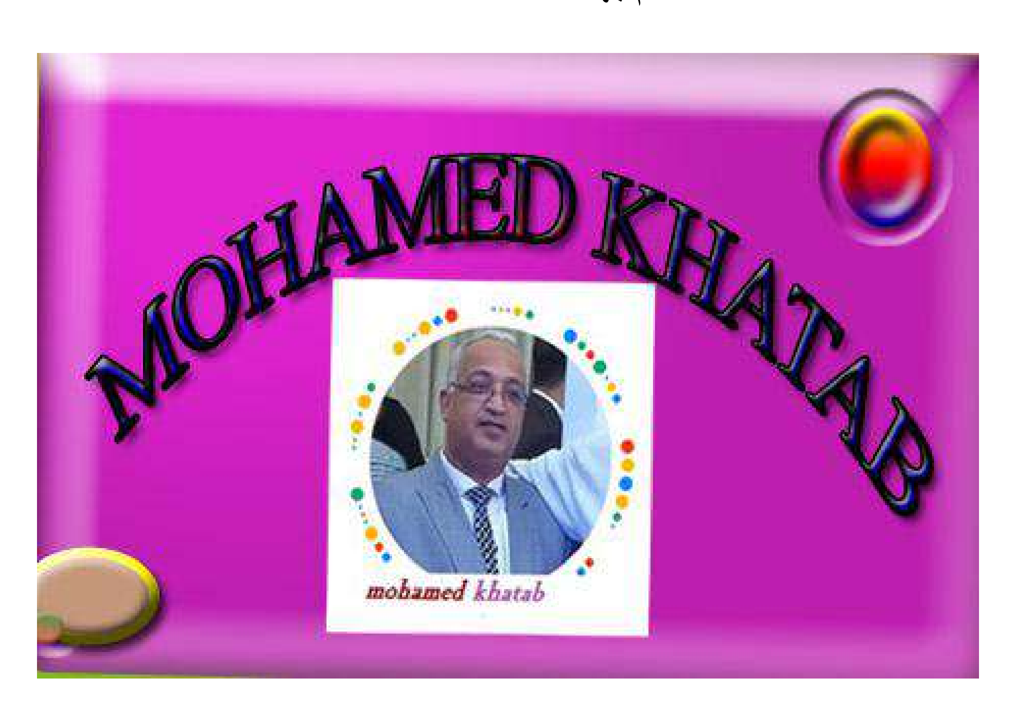
مختارات مشروع «كلمة» من أدب الناشئة الفرنسيّ

جول رونار
مغامرات الفتى
«أصهب»

روايــة

ترجمها عن الفرنسية
محمد علي اليوسفي

مراجعة
كاظم جهاد



الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

Renard, Jules, 1864- 1910

مغامرات الفتى «أصهب»: رواية / جول رونار ؛ ترجمة محمد علي اليوسفي ؛ مراجعة كاظم جهاد.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2017.

315 ص. ؛ 12.5*17.8 سم. – (سلسلة مختارات مشروع «كلمة» من أدب الناشئة الفرنسيّ).

ترجمة كتاب : **Poil de Carotte**

أ- اليوسفي، محمد علي. ب- جهاد، كاظم.

هذه ترجمة لكتاب الروائيّ الفرنسيّ جول رونار

مغامرات الفتى «أصهب»

*Poil de Carotte*Jules Renard,

رسم الغلاف والرّسوم الداخليّة للرّسام الفرنسيّ فرانسيسك بولبو

Illustrations par Francisque Poulbot (1879-1946)



www.kalima.ae

ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: 2 5995 579 +971





ص.ب: 440050، الهدهد للنشر والتوزيع شارع دمشق - القصيص دبي - الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 042206117

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة.

مغامرات الفتى

«أصهب»

هذه السّلسلة

يشكّل أدب النّاشئة أحد أهمّ أجناس الأدب العالميّ، تتبارى أكبر دور النّشر الغربيّة لاحتضان أفضل نماذجه، القديم منها أو الجديد. مبدئيّاً، يتوجّه هذا الأدب للنّاشئة ممّن تتراوح أعمارهم بين الثّامنة والثّامنة عشرة، فهو يتمّم أدب الأطفال ويمهّد لأدب الرّاشدين أو الكبار. ومع ذلك فما فتئت نصوصٌ عديدة منه تجتذب قرّاءً من مختلف الأعمار، لما يجدون فيها من فتوّةٍ للسّرد وعذوبةٍ للّغة وانتشارٍ باذخٍ للخيال.

رافقَ هذا الأدب، في صيَغه الشّفويّة، فجرَ جميع الثّقافات. واعتباراً من القرن السّابع عشر حوّله لفيفٌ من الكتّاب الفرنسيّين إلى جنسٍ أدبيّ مكتوب قائم بذاته وله أساليبه ومناخاته وقواعده. ولئن كان أغلب روّاده الكبار، وبخاصّةٍ شارل بيرّو وماري-كاترين دَونوا، قد أوقفوا عليه جلّ نشاطهم الإبداعيّ، مكتفين بالكتابة للنّاشئة، فإنّ العديد من كبار كتّاب الأجيال والقرون اللاّحقة قد خضعوا لجاذبيّة هذا الجنس، فخصّوه بأثَرٍ أدبيّ أو أكثر أضافوه إلى إبداعاتهم المنضوية تحت لواء أجناسٍ أخرى. بفضل صنيعهم هذا، لم يعد أدب النّاشئة محبوساً في إطار الشّائق والعجيب أو في مناخات قصص السّاحرات والجنيّات، بل صار يخترق كلاًّ من التّاريخ والواقع المعيش وجغرافية العالَم وآفاق الفكر الرحبة ويضيئها من داخلها، مصوِّراً إيّاها بعين الأجيال الصّاعدة وحساسيّتها. هكذا مارس هذا الجنسَ الأدبيَّ أساطينُ في فنون السّرد من بينهم رائد الرّواية التاريخيّة ألكساندر دوما والكاتب الواقعيّ غي دو موباسان وآخرون عديدون.

إنّ الغاية التي وضعت الكونتيسة دو سيغور رواياتها للنّاشئة تحت شعارها، ألا وهي تثقيف النّاشئة وتوعيتهم بوسائل الأدب والتّعجيب القصصيّ، تظلّ حاضرة بدرجات متفاوتة من الإضمار في كلّ النّماذج الكبرى من هذا الجنس. من هنا، فإنّ هذه السّلسلة، المخصّصة لترجمة مجموعة من

المؤلّفات العالميّة في هذا المضمار، والتي يساهم في نقلها إلى لغة الضادّ فريق من ألمع أدبائها ولغويّيها ومترجميها، إنّما تطمح لا إلى تزويد النّاشئة العرب بنماذج أساسيّة من هذا الجنس الأدبيّ فحسب، بل كذلك إلى إغناء الأدب العربيّ نفسه بإجراءات سرديّة وشعريّة قد يكون كتّاب العربيّة في شتّى ممارساتهم ومَشاربهم بحاجة إليها.

وللباعث نفسه، يتمثّل أحد رهانات هذه السّلسلة، من حيث صياغة النّصوص، في تحاشي التبسيط المفرط والإفقار العامد للّغة، اللّذين غالباً ما يُفرَضان على هذا النّمط من الحكايات، بتعلّة توجّهها للناشئة. بلا تقعيرٍ للكلام، ولا تعقيدٍ لا جدوى منه، سعى محرّر هذه السّلسلة ومترجموها إلى إثراء خيال الناشئة لا بالصّوَر والتّجارب فحسب، بل بالأداءات اللغويّة والإجراءات التعبيريّة أيضاً. ولقد بدا لنا خيارٌ كهذا أميناً لطبيعة النّصوص وكتابتها من جهة، وللمطلب الأساسيّ المتمثّل في إرهاف التلقّي الأدبيّ للناشئة من جهة أخرى. وإذا ما التبسَ على هذا القارئ أو ذاك معنى مفردةٍ ما أو صيغةٍ ما، فلا أسهلَ من أن يستعين بالمَعاجم أو يسأل الكبار حولَه إضاءتها له. هكذا تنشأ تقاليد في القراءة وتتعزّز طرائقُ تشاوُرٍ وحوار.

المحرّر

كاظم جهاد

هذا الكتاب

هذه الرّواية كلّفت كاتبها ثمناً غالياً إذا انطلقنا من حقيقة باتت معروفة؛ وهي أنها تتحدّث عن طفولة الكاتب، فصارت من أبرز كتب الناشئة التي ازدادت شعبيّتها بفعل تكريسها في المدارس الفرنسية والفرنكوفونية، فضلاً عن المسرح والسينما والتلفاز لاحقاً.

وُلد المؤلّف جول رونار Renard Jules يوم 22 شباط/ فبراير 1864 في شالون دو ماين، من مقاطعة مايين الفرنسية، حيث كان أبوه مقاولاً في سكة الحديد. وهو ثالث ثلاثة إخوة (وكان يمكن أن يكون الرابع لكنّ أخته إيميلي الأولى ماتت طفلة؛ أمّا إيميلي الثانية فقد ولدت سنة 1859 بعد عام واحد من موت الأولى، وأخوه موريس سنة 1862). لكنّ جول جاء إلى الدّنيا في مرحلة لم يعد فيها والداه على وفاق نهائيّاً، فظلّ غير مرغوب فيه دائماً، والأمّ التي لم تعد تطيق زوجها اتّخذت الموقف نفسه تجاه هذا القادم الجديد.

بعد حياة شاقّة ودراسة متعثّرة، لم يحقّق جول رونار نجاحاً أدبياً كبيراً إلاّ في السنوات الأخيرة من عمره القصير؛ إذْ تُوفّي في باريس سنة 1910 عن 46 عاماً بعد إصابته بتصلّب الشرايين. من أعماله الروائيّة: «جريمة في قرية» (1888)، و«مُعاكِس البنات» (1894)، و«أصهب» (1894) (وقد دعوناه هنا «مغامرات الفتى أصهب»)، وغيرها. وفي المسرح: «متعة القطيعة» (1897) و«أصهب» (1900)، و«السيّد فيرني» (1903)، إلخ. كما كتب مذكّراته التي تُعتبر شهادة حيّة على عصره والوسط الأدبيّ الذي عايشه، بعنوان: «يوميّات» (1887-1910) وقد نُشرتْ سنة 1925.

والاسم «أصهب» في عنوان الرواية ترجمة عربيّة ليست حرفيّة لمعنى العنوان الأصليّ الذي يمكن أن يترجم حرفيّاً بـ : «شَعْر الجزْرَة». والأمّ تطلق هذا الاسم على وليدها الأخير، «لأنّ شعره أصهب اللّون وجلده منمّش»، كما جاء في الصفحات الأولى من الرواية.

كُتبت الرواية بطريقة المقاطع القصيرة المُمَسْرحة غالباً والتي لا تخلو من التشويق دائماً.

شخصية «أصهب» هي شخصيّة الطفل الضحيّة، أو كبش المحرقة الذي يعاني الظلم من أقرب المقرَّبين إليه. يعتبرونه غبيّاً فيستكين لأنه لا يريد أن يخيّب ظنّهم خوفاً من ردود أفعالهم، وصولاً إلى آخر فصول الرواية التي يُبدع فيها المؤلف مقدِّماً لتمرّد أصهب بفصل عنوانُه «عاصفة الأوراق» يكون تمهيداً لكلمة «لا» التي ينطق بها أصهب أخيراً فتزلزل التراتبيّة العائلية وتكشف عن تواطؤ حميم بينه وبين أبيه، وعن درجة من المحبّة، مغلّفة بالقسوة، كانت تختفي وراء شخصيّة الأب العابسة والمسافرة دائماً.

المترجم

محمّد علي اليوسفي

الدّجاج

قالت السيّدة لوبيك: أُراهن أنّ الخادمة هونورين قد نسيت مجدّداً إغلاق قنّ الدّجاج.

وهذا صحيح. إذ يمكن التأكّد من ذلك عبرَ النافذة. فهنالك، في آخر الساحة الكبيرة، يلوح القنّ الصغير، في الظلام، ومربّع بابه الأسود مفتوح.

- فيليكس، ماذا لو تذهب أنت لإغلاقه؟ قالت السيّدة لوبيك للبِكر من أبنائها الثلاثة.

- أنا لست هنا لأهتمّ بالدّجاج، قال فيليكس.

وهو فتى شاحب وبليد وجبان.



- وأنتِ يا إرنستين؟

- أوه! أنا، يا ماما، سوف يتملّكني خوف شديد!

كان الأخ الأكبر فيليكس والأخت إرنستين لا يكادان يرفعان رأسيهما للإجابة. إذْ كانا يقرآن، باهتمام كبير، ومرفقاهما على المائدة، حتّى لتكاد جبهتاهما تتلاصقان.

- يا إلهي، كم أنا غبيّة! قالت السيّدة لوبيك. كدت أنسى وجوده. اذهبْ يا أصهب لإغلاق قنّ الدّجاج! وهي تطلق هذا الاسم المحبّب على وليدها الأخير، لأن شعره أصهب اللون وجلده منمّش. وقف أصهب الذي كان يتظاهر باللّعب تحت المائدة وقال بخجل:

- ولكنّني أخاف، أنا أيضاً، يا ماما.

- ماذا تقول؟ أجابت السيّدة لوبيك، وأنت الشابّ الكبير! أكيد أنك تمزح. أسرعْ، لو سمحت!

- طبعاً نحن نعرفه جيّداً؛ إنّه مقدام مثل تيس، قالت أخته إرنستين.

- إنه لا يخشى شيئاً ولا يخاف أحداً، قال فيليكس، أخوه الأكبر.

هذا الثناء أثار زهوَ أصهب، وخشيةَ أن يكون غير جدير بذلك، بدأ يقاوم جبنَه. ولكي تشجعه أمّه نهائيّاً فقد «وعدتْه» بصفعة.

- أضيئوا لي المكان على الأقلّ، قال.

هزّت السيّدة لوبيك بكتفيها، وابتسم فيليكس باحتقار.

وحدها إرنستين الأكثر حناناً تناولت شمعة ورافقت الأخ الأصغر حتّى نهاية الممرّ.

- سوف أنتظرك هنا، قالت.

لكنها هربت فوراً، مرتعبة، لأن هبّة ريح قويّة جعلت نور الشمعة ينوس ثمّ ينطفئ.

بدأ أصهب يرتعش في العتمة ملتصق الردفين وقدماه منغرزتان في الأرض. ومن كثافة العتمة ظنّ أنه أعمى. وكانت بعض الهبّات تغلّفه مثل ملاءة مثلّجة لتطير به. ألم يكن الأمر يتعلّق بثعالب، بل وبذئاب أيضاً، تنفث لهاثها بين أصابعه، وعلى خدّه؟ إنّه لَمن الأفضل الاندفاع، تقديريّاً، باتجاه الدّجاج، يسبقه رأسه، كي يتمكّن من خرق الظلام. وبالتلمّس، أمسكَ بمزلاج الباب. وبسبب الضجيج الذي أحدثته خطواته هاج الدّجاج المذعور مقوقئاً على مجاثمه.

صاح أصهب بالدّجاج قائلاً:

- سكوت ! هذا أنا!

ثمّ أغلق الباب وفرّ كما لو نبتت له أجنحة بدلاً من ساقيه ويديه. وعندما دخل البيت، لاهثاً، فخوراً بنفسه، وبلغَ الدفء والضوء، خُيّل إليه أنه يتخلّى عن خِرَق أثقلها الوحل والمطر، لصالحِ ثياب جديدة وخفيفة. ابتسمَ، وانتصبَ مستقيم القامة مزهوّاً ومنتظراً التهاني، وهو الآن بعيد عن الخطر، بحثَ في وجوه عائلته عن آثار القلق الذي قد يكون خالجهم.

غير أنّ الأخ الأكبر فيليكس والأخت إرنستين كانا يتابعان القراءة، فيما قالت له السيّدة لوبيك، بصوت طبيعيّ:

ـ يا أصهب، من اليوم فصاعداً سوف تتولّى أنت إغلاق قنّ الدّجاج كلّ ليلة.

الحجْلتان

أفرغت السيّدة لوبيك كيس الصّيد فوق المائدة، كما جرتْ عادتها. كان يحتوي على حجلتيْن. أدرجهما الأخ الأكبر فيليكس على لوح أردوازيّ معلّق على الجدار. تلك مهمّته. ولكلّ واحد من الأبناء وظيفته. فالأخت إرنستين تتولّى نتف ريش الطرائد وسلْخها. أمّا أصهب فهو مكلّف أساساً بالإجهاز على الطرائد الجريحة. وهو مدين بهذا الامتياز لما عُرف به من قسوة القلب الخالي من الإحساس.

هاجت الحجلتان وبدأتا تهزّان عنقيهما.

السيّدة لوبيك: ماذا تنتظر للإجهاز عليهما؟

أصهب: أنا أيضاً يا أمّي أتمنّى لو أسجّلهما على اللوح.

السيّدة لوبيك: اللّوح مرتفع جدّاً بالنسبة إليك.

أصهب: إذن، أرغب في تنتيفهما.

السيّدة لوبيك: هذه ليست مهمّة الرجال.

أمسك أصهب بالحجلتين، وتكرّموا عليه بالتعليمات الإجرائيّة:

- اضغطْ عليهما، هنا، كما تعرف جيّداً، عند العنق، بعكس اتجاه الريش.

بدأ بالتطبيق واضعاً كلّ طائر في يد، خلف ظهره.

السيّد لوبيك: اثنتان دفعة واحدة، يا للعجب!

أصهب: من أجل الانجاز السريع.

السيّدة لوبيك: لا تبالغ في التحسّس؛ فأنت تتلذّذ في داخلك.

دافعت الحجلتان عن نفسيْهما، مختلجتيْن، وجناحاهما يخفقان ناثريْن ريشهما. واضح أن الحجلتين لا تريدان الموت أبداً. وكان من الأسهل عليه خنق أحد أصدقائه بيد واحدة وبطريقة أسهل. وضعهما بين ركبتيه ليسيطر عليهما، وبدأ يحمرّ تارة ويبيضّ تارة أخرى، ويعْرق، فيما رأسه مشرئبّ حتّى لا يرى شيئاً، وهو يضغط أقوى فأقوى.

لكنّهما ظلّتا تعاندان.



استبدّت به الحماسة لإنهاء الأمر، فأمسك بهما من قائمتيهما وشجّ رأسيهما على طرف حذائه.

- آه! السفّاح! السفّاح! صاح كلّ من الأخ الأكبر فيليكس والأخت إرنستين.

- والمصيبة أنه يتفنّن في ذلك، قالت السيّدة لوبيك. يا لهما من طائرين مسكينين! لا أتمنّى أبداً أن أحلّ محلَّهما، بين مخالبه.

أمّا السيّد لوبيك فقد خرج متقزّزاً رغم أنه صيّاد قديم.

- تمام! قال الفتى أصهب، وهو يرمي بالحجلتين الميتتين فوق المائدة.

شرعت السيّدة لوبيك تقلّبهما وتعيد. جمجمتان صغيرتان مهشّمتان، دم سائل، وقليل من المخّ.

- لقد حان الوقت لتخليصهما منه، قالت. ألا يكفي ما عمله بقذارة؟

قال الأخ الأكبر فيليكس: أمرٌ إيجابيٌّ أنّه لم ينجح في الإجهاز عليهما كما في المرّات السّابقة.

إنّه الكلب

السيّد لوبيك والأخت إرنستين متّكئان تحت المصباح، ويقرآن؛ الأوّل يقرأ الجريدة، والثانية تقرأ كتاباً نالته كجائزة، السيّدة لوبيك تحيك الصوف والأخ الأكبر فيليكس يدفّئ ساقيه قرب النار، فيما كان الفتى أصهب مستلقياً على الأرض ويتذكر عدّة أشياء.

فجأة أطلق بيرام النائم تحت الحصيرة زمجرة مخنوقة.

- اششثْ! همست السيّدة لوبيك.

زمجر بيرام بصوت أعلى.

- يا غبيّ! قالت السيّدة لوبيك.



لكن بيرام شرع ينبح بعنف حتّى انتفض الجميع. وضعت السيّدة لوبيك يدها على صدرها. ونظر السيّد لوبيك إلى الكلب شزراً وهو يكزّ بأسنانه. بينما انطلق الأخ الأكبر فيليكس بالشتائم. وهكذا لم يعد أحد يسمع أحداً.

- هلاّ سكتَّ أيها الكلب القذر! اخرسْ يا كلب!

زادت وتيرة بيرام. ضربتْه السيّدة لوبيك ووجّه إليه السيّد لوبيك ضربات أخرى بجريدته، ثمّ بقدمه. ظل بيرام ينبح وهو مستلقٍ على بطنه، خافضاً أنفه خوفاً من الضرب. وبدا كما لو أنّ غضبه جعله يصدم وجهه بالحصير ليتهشّم صوته في صيحات متتالية.

سيطر الغضب على عائلة لوبيك حتّى كاد يخنقهم. فاستشرسوا، واقفين، ضدّ الكلب اللاّبد الذي يواجههم بمفرده.

بلّور النوافذ يصرّ، ماسورة المدفأة تهتزّ بل إن الأخت إرنستين شرعت تنبح بدورها.

غير أنّ الفتى أصهب، ومن دون أن يطلب منه أحد ذلك، ذهب لاستكشاف الأمر. قد يكون هناك متشرّد متأخّر في الشارع سيعود إلى بيته الآن، إلاّ إذا خامرته فكرة تسلّق سياج الحديقة من أجل السرقة.

تقدّم الفتى أصهب عبر الممرّ الطويل المعتم ويداه ممدودتان باتجاه الباب. عثر على المزلاج فسحبه بقرقعة، لكنّه لم يفتح الباب.

في السابق كان يخاطر ويخرج مُصَفّراً، منشداً ورافساً بقدميه، جاهداً بذلك كي يرعب العدوَ.

أمّا اليوم فهو يغشّ.

وفي حين كان أهله يتصوّرون أنه يفتّش الأنحاء ببسالة ويلفّ حول البيت مثل حارس وفيّ، كان يغشّهم ويمكث ملتصقاً بظهر الباب.

سوف ينكشف ذات يوم ويُعاقَب، غير أنّ حيلته ما زالت تحافظ على نجاحها منذ زمن طويل.

لا يخشى إلاّ العُطاس أو السعال. لذلك حبسَ أنفاسه. وعندما يرفع عينيْه يلمح، عبر نافذة صغيرة، فوق الباب، ثلاثة نجوم أو أربعة يؤدّي به صفاء تلألؤها إلى التجمّد.

لكنّ الوقت حان للعودة إلى البيت. لا ينبغي للعبة أن تطول أكثر ممّا يجب. وإلاّ استيقظت الشكوك.

ومن جديدٍ هزّ بيديه النحيلتين ذلك المزلاج الثقيل الذي انبعث أزيزه داخل الأنبوب الصدئ، ثمّ دفعه بصخب حتّى آخر مساره. من هذا الضجيج العارم يمكن الحكم إنْ كان يعود من بعيد حقاً. أحسّ بقشعريرة في ظهره فأسرع يطمْئن أهله. بعد القيام بالواجب!

والحال أنّ بيرام، كما في المرّة السابقة، التزم الصمت خلال غيابه، وعاد آل لوبيك، وقد استعادوا هدوءهم، إلى أماكنهم التي لا تتغيّر، ورغم أنّ أحداً لم يسأله عن شيء، فقد قال الفتى أصهب وفق العادة:

- الكلب كان يحلم.



الكابوس

لا يحبّ الفتى أصهب أصدقاء العائلة. فهم يزعجونه ويستولون على سريره، ويجبرونه على النوم إلى جانب أمّه. والحال أنّه إذا كان يمتلك في النهار كلَّ العيوب، فهو في الليل يتميّز، خاصّةً، بعيب الشخير. ولا شكّ أنه يشخر متعمّداً.

تضمّ الغرفة الكبيرة، ذات البرد القارس حتّى في شهر آب، سريريْن. أحدهما سرير السيّد لوبيك، والثاني هو الذي يلجأ إليه أصهب للنوم في أقصاه بمحاذاة أمّه .

قبل النوم يسعل تحت الملاءة، كي ينظّف حلقه. لكن، لعلّه يشخر من أنفه؟ لذلك ينفخ بمنخريه في هدوء حتّى يتأكّد أنهما ليسا مسدوديْن. إنه يتمرّن للتخفيف من حدّة تنفُّسه.

لكنّه لا يكاد يغفو حتّى يبدأ بالشخير وكأنّه مولَعٌ بذلك.

وفي الحال تحشر السيّدة لوبيك ظفرين لتقرصه حتّى تدميه في أطرى موضع من إحدى إليتيْه. لقد وقع اختيارها على هذه الوسيلة.

وها هو ذا صراخ الفتى أصهب يوقظ السيّد لوبيك، بغتةً، ليسأله هذا:

- ما بك؟

- يعاني من كابوس، تجيب السيّدة لوبيك.

وتشرع في هدهدته، على طريقة المربّيات، بأغنية تبدو هنديّة على الأرجح.

أمّا أصهب فيدفع الجدار برأسه وركبتيْه كما لو أنه يريد هدمه، فيما تظلّ يداه ملتصقتيْن بإليتيْه لتفادي القرصة القادمة عقب أولى البوادر الصوتيّة للشّخير، حتّى يعود إلى النوم في السّرير الكبير بجانب أمّه.

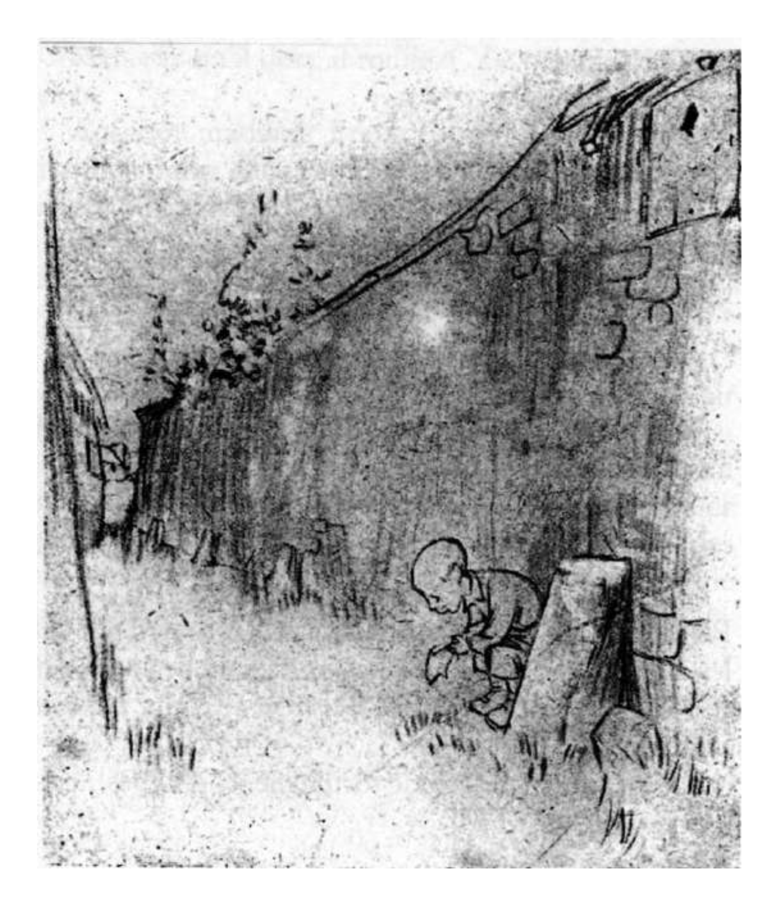
مع احترامي

هل يمكننا إفشاء سرّ، بل هل ينبغي إفشاؤه؟ في السنّ التي يكون فيها أتراب أصهب الآخرون قد تناولوا خبزَ القربان، أنقياءَ القلب والجسد، ظلّ هوَ وسخاً. ذات ليلة، انتظرَ أكثر ممّا ينبغي، ولم يجرؤ على الطلب.

كان يأمل تهدئة انزعاجه الطارئ بواسطة التلوّي المتدرّج.

يا له من ادّعاء!

وفي ليلة أخرى، حلم أنه جالسٌ بطريقة مريحة قربَ حجر، بعيداً عن الأنظار، ثمّ «فعلَها» تحت الملاءة، بكلّ براءة وهو في نوم عميق. ثمّ استيقظ.



ولم يكن حوله من حجرٍ، ولا كان لدهشته من حدود! تمالكت السيّدة لوبيك غضبها. نظّفت كلّ شيء هادئةً، متسامحةً بحنان الأمّ. وأكثر من ذلك؛ ففي صباح الغد، ومثل أيّ طفل مدلّل، تناول أصهب فطور الصباح في فراشه.

نعم، لقد جُلِبَ له الحساء حتّى الفراش، كان حساء متْقناً وشهيّاً، رقّقتْه السيّدة لوبيك بواسطة ملعقة خشبية، نعم! رقّقتْه قليلاً جدّاً.

وقربَ سريره كان الأخ الأكبر فيليكس والأخت إرنستين يراقبان أصهب بطريقة ماكرة ومستعدّيْن للانفجار بالضحك في أوّل إشارة. ظلّت السيّدة لوبيك «تزقّ» صغيرها ملعقةً تلو ملعقة. وبنظرة جانبية نحو الأخ الأكبر فيليكس وأخته إرنستين بدت كأنها تقول:

- انتبها! كونا جاهزيْن!

- نعم، ماما.

وشرعا يستمتعان مسبقاً بتكشيرات التقزّز التي ستحدث لاحقاً. كان ينبغي دعوة بعض الجيران! أخيراً، وبنظرة ختاميّة للأخويْن، كما لو كانت تسألهما: «هل أنتما جاهزان؟». رفعت السيّدة لوبيك آخر ملعقة ببطء، ودفعت بها إلى فم أصهب المفتوح، غارزةً إيّاها حتّى الحلق، فحشتْه وعلَفته وأتخمته، ثمّ قالت له جامعةً بين السخرية والتقزّز:

- لو تعلَم يا أصهب! لقد وضعتُ لك فيها ما تحبّ وما لا تحبّ.

- خامرني الشكّ في ذلك، أجاب أصهب بكلّ بساطة، ومن دون أن تظهر عليه التكشيرات المرتقبة.

لقد اعتادَ، وكلّ ما يعتاده المرءُ يفقد طرافته.

الوعاء

1

وبالنظر إلى كثرة ما حدث معه من مصائب في الفراش صار أصهب مهتمّاً بالاحتياط كلَّ ليلة. في الصيف يكون الأمر سهلاً. وعندما ترسله السيّدة لوبيك للنوم في الساعة التاسعة، يقوم أصهب بجولة في الخارج بطيبة خاطر، ثمّ يمضي ليلة هادئة.

أمّا في الشتاء فإنّ الجولة تصير عملاً شاقّاً. وعبثاً حاول أن يتّخذ إجراءً احتياطيّاً أوليّاً منذ هبوط الليل وقيامه بإغلاق قنّ الدّجاج، فهو لا يأمل أن يكون ذلك الاحتراس الأوليّ كافياً حتّى صباح الغد. إذْ يتمّ تناول العشاء، ثمّ السّهر، وبعد ذلك تدقّ الساعة التاسعة، يمرّ وقت طويل من الليل، لكنه يدوم أكثر، مثل أبديّة. ينبغي على أصهب أن يتّخذ إجراءً احتياطيّاً ثانياً.



وفي هذا الليلة، وكما هي الحال في كلّ ليلة، بدأ يتساءل.

- ألديَّ رغبة في ذلك، أم لا، حدّث نفسه.

كان في العادة يجيب نفسه بـ «نعم»، إمّا لأنه لا يستطيع التراجع حقيقةً، أو لأن القمر يشجّعه بلمعانه. وفي بعض الأحيان يكون السيّد لوبيك وأخوه الأكبر فيليكس قدوةً له. زدْ على ذلك أنّ قضاء هذه الضرورة لا يتطلّب منه دائماً الابتعاد عن البيت، حتّى يبلغ خندق الشارع الموجود في الخلاء تقريباً. وكثيراً ما يكتفي بالتوقّف أسفل السلّم؛ وهذا يتوقّف على الظروف.

أمّا الليلة فالمطر يرشق زجاج النوافذ، والريح أطفأت النجوم، وأشجار الجوز هائجة في المروج.

- هذا أمر مناسب جدّاً، استنتج أصهب، بعد التداول السريع، لا أرغب في ذلك.

تمنّى ليلة سعيدة للجميع، أشعل شمعة، والتحق بغرفته العارية، المنعزلة، والموجودة على اليمين في أقصى الممرّ. خلع ثيابه ودخل إلى فراشه منتظراً زيارة السيّدة لوبيك. طوتْ هيَ أطراف الغطاء تحت السرير حتّى أحسّ أنه مشدود إليه، ثمّ أطفأت الشمعة. لقد تركت له الشمعة لكنها لم تترك له علبة الكبريت، وبعد ذلك عمدتْ إلى إغلاق الباب بالمفتاح لأنه شديد الخوف. تذوّق أصهب في البداية متعة الوجود بمفرده. وراق له التأمّل في العتمة. استعاد أحداث يومه وهنّأ نفسه على نجاحه في حسن التخلّص مراراً، وراهن على حظّ مماثل في الغد. أعجبه أن تعجز السيّدة لوبيك عن الانتباه إليه يومين متتاليين، وحاول النوم محتضناً هذا الحلم.

ولم يكد يغمض عينيه حتّى أحسّ بضيق يعرفه جيّداً.

- هذا أمر لا يمكن تفاديه، قال أصهب لنفسه.

وكان من شأن أيّ شخص آخر أن ينهض. غير أن أصهب يدرك جيّداً أنْ لا وجود للوعاء المخصّص لقضاء الحاجة، تحت السرير. ومهما كانت قدرة السيّدة لوبيك على تأكيد العكس تماماً، فهي تنسى دائماً وضع واحد تحت السرير، وما الحاجة إلى ذلك الوعاء ما دام أصهب يحتاط دائماً؟

وهكذا استغرق أصهب في التفكير والتحليل بدلاً من النهوض. قال في نفسه:

- عاجلاً أو آجلاً، سيتوجّب عليّ الاستسلام. والحال أنني كلّما صمدت أكثر تراكم لديَّ المزيد. لكنني لو فعلتُ ذلكَ فوراً فسوف تكون الكميّة قليلة، ويكون هناك وقتٌ كافٍ للملاءات كي تجفّ بفعل حرارة جسمي. وأنا متأكّد بالتجربة أن أمّي لن ترى قطرة واحدة.

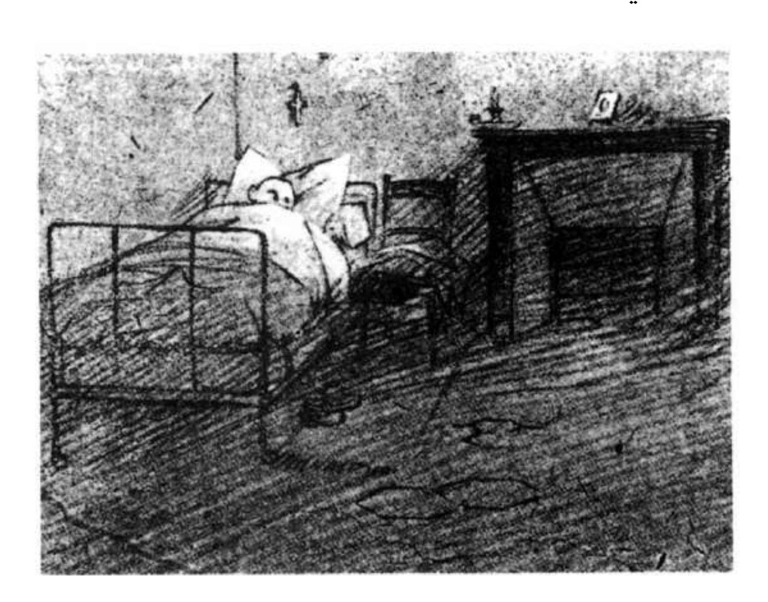
استجاب أصهب لنداء حاجته الضروريّة، عاد إلى إغماض عينيه بكلّ طمأنينة، وراح في نوم عميق.

2

فجأة استيقظ واستمع إلى بطنه.

- آه! آه! لقد تفاقم الوضع!

قبل قليل كان يظنّ نفسه بريء الذمّة. لقد بالغ في التفاؤل. مساء البارحة أدّى به الكسل إلى ارتكاب الخطأ. وعقابه الحقيقيّ يقترب.



جلس على سريره وحاول أن يفكّر. الباب موصد بالمفتاح. والنافذة مدعّمة بقضبان. الخروج مستحيل.

ومع ذلك وقف وذهب يتلمّس الباب وقضبان النافذة. زحف على الأرض ويداه تجذّفان تحت السرير بحثاً عن وعاء يعرف مسبقاً أنه غير موجود.

عاد للاضطجاع ثمّ نهض ثانية. وهو يفضّل التحرّك والمشي والرفس على النوم. فشرع يضغط بقبضتيه على بطنه الذي بدأ يتمدّد.

- أمّي! أمّي! نادى بصوت رخو خشية أن تسمعه أمّه. إذْ لو ظهرت السيّدة لوبيك فجأةً ورأتْه، لَبدا أصهب، وقد شُفيَ رأساً، كما لو أنّه يسخر منها. كلّ ما كان يريده من ندائه هو أن يستطيع القول غداً، ومن دون كذب، إنّه ناداها.

وكيف عساه يصرخ؟ فكلّ قواه الآن منصرفة إلى تأخير الكارثة.

وسرعان ما تملّكت أصهب آلام فظيعة جعلته يرقص. خبطَ الجدار وارتدّ واثباً. خبطَ حديد السرير. خبطَ الكرسيّ، خبطَ المدفأة التي رفع غطاءها بعنف وانهار بين القضبان المهيّأة للحطب، متلوّياً، منهزماً، مفعماً بسعادة مطلقة.

ازدادت كثافة العتمة في الغرفة.

3

لم يعد أصهب إلى النوم إلاّ مع بزوغ الشمس، ونام حتّى الضّحى عندما دفعت السيّدة لوبيك الباب مقطّبة الوجه كأنها تتشمّم روائح منفّرة.

- يا لها من رائحة! قالت.

- صباح الخير يا أمّي، قال أصهب.

انتزعت السيّدة لوبيك الملاءات، تشمّمتْ زوايا الغرفة، ولم تتأخّر في اكتشاف السرّ.

- كنت مريضاً ولم أجد وعاءً، سارع أصهب بالقول معتقداً أنّ تلك هي أحسن وسيلة للدفاع.



ـ كذّاب! كذّاب! قالت السيّدة لوبيك.

أسرعت بالخروج ثمّ عادت ومعها وعاء عملت على إخفائه، ودسّتْه تحت السرير. دفعت أصهب الواقف وصرخت جامعةً كلّ العائلة وصاحت:

ـ ماذا فعلت للسماء حتّى يكون لي ابن مثل هذا؟

وظلّت، تارةً، تأتي بخِرَقٍ، وبسطل من الماء، حتّى أغرقت المدفأة وكأنها كانت تطفئ نارها. نفضت أغطية السرير وطالبت بالهواء! الهواء! مشغولة ومنتحبة.

وطوراً تومئُ في وجه أصهب:

ـ أيها البائس! ها إنّك فقدت الإحساس! ها أنتَذا فاسد ومشوّه! تعيش مثل الحيوانات إذن! لو قدّمنا وعاءً لحيوان لأدرك كيف يستخدمه، بينما أنت تتمرّغ في المدفأة. الربّ يشهد أنك تجعلني أتحوّل إلى بلهاء، وسوف أموت مجنونة، مجنونة، مجنونة!

كان أصهب حافياً لا يرتدي إلاّ قميصه وينظر إلى الوعاء. في الليل لم يكن يوجد وعاء، والآن يوجد وعاء، هناك، قرب السرير. ذلك الوعاء الأبيض الفارغ يكاد يعميه، ولو أصرّ أنه لا

يراه سيكون في ذلك مزيد من الوقاحة.

وأمام انزعاج عائلته ومرور الجيران الساخرين وساعي البريد الذي وصل للتوّ، وكلهم يزعجونه ويضيّقون عليه في الأسئلة:

- بِشَرَفي! أجاب أصهب أخيراً، وعيناه على الوعاء، أنا لم أعد أعرف شيئاً. تَدبّروا أمركم.

الأرانب

لم يبقَ لك شيء من البطيخ الأصفر، قالت السيّدة لوبيك، وأنت مثلي، لا تحبّه، على أيّة حال.

- موافق، قال أصهب.

هكذا كان يُفرَض عليه ما يريد وما يكره. وعليه من حيث المبدأ ألاّ يحبّ إلاّ ما تحبّ أمّه. وعندما حان دور الجبنة:

- أنا متأكدة، قالت السيّدة لوبيك، أنّ أصهب لن يأكل منها.

وفكّر أصهب: بما أنها متأكّدة من ذلك، فما من داعٍ للمحاولة.

زدْ على ذلك فهو يعرف أنّ في الأمر خطورةً.

أليس لديه متّسع من الوقت لإرضاء أغرب نزواته في أماكن لا يعرفها سواه؟ بعد الأكل، عندما حان وقت التحلية، قالت له السيّدة لوبيك:

- خذْ هذه القطع المتبقّية من البطّيخ لأرانبك.

نفّذ أصهب تلك المهمّة بخطوات بطيئة حاملاً الصحن بشكل أفقيّ تماماً حتّى لا يسقط منه شيء.

عندما دخل على الأرانب المغرمة بالجلبة والصخب كانت تحرّك آذانها وترفع خياشيمها وقوائمها الأماميّة متصلّبة كما لو كانت تستعدّ لقرع على الطبول، فأسرعت متجمّعةً حوله.

ـ آه! انتظرنَ! قال أصهب؛ لحظة من فضلكنّ، لا بدّ من المشاركة.



جلس في البداية على كومة روث، ثمّ على زهور «شرونة» قضمتها الأرانب حتّى جذورها، وعلى بقايا قرميّات كرنب، وأوراق خبازى، وفيما شرع يقدّم بذور البطيخ للأرانب كان هو الذي يشرب عصيره: إنه حلوٌ ولذيذ.

وبعد ذلك قشّر بأسنانه بقايا ما تركته عائلته من قطع البطيخ الأصفر الحلو، بقايا كلّ ما هو طريّ، بينما قدّم القشور الخضراء للأرانب المتحلّقة أمامه جالسةً على مؤخّراتها.

كان باب مأوى الأرانب مغلقاً وشمس القيلولة تتخلّل ثقوب القرميد غامسةً أطراف أشعّتها في الظلّ النديّ.

المعْوَل

الأخ الأكبر فيليكس والفتى أصهب يعملان متجاورَيْن. ولكليهما معول. لقد صُنِعَ معول الأخ الأكبر فيليكس وفقَ قياسه ومن الفولاذ، لدى الحدّاد. أمّا أصهب فقد صنَعَ معوله بمفرده ومن الخشب. إنّهما يعملان في الحديقة بكدّ ويتنافسان في النشاط. فجأة، وفي اللحظة الأقلّ توقّعاً (والمصائب لا تقع إلاّ في هذه اللحظة تحديداً) تلقّى أصهب ضربة معول في وسط جبينه.

وبعد لحظات من ذلك، كان لابدّ من نقل الأخ الأكبر فيليكس وتمديده بعناية على السرير، لأنه أصيب بتوعّك من مشاهدة الدم ينبجس من جبين أخيه الأصغر. كلّ أفراد العائلة هنا، واقفين على أطراف أصابعهم، يتنهّدون متوجّسين.



- أين الأملاح؟

- قليلاً من الماء النقيّ، من فضلكم، لترطيب الصدغيْن.

صعد الفتى أصهب فوق كرسيّ كي يتمكّن من المشاهدة عبر الأكتاف والرؤوس. كان جبينه مضمّداً بقطعة بيضاء تحوّلت إلى اللون الأحمر حيث الدم ينضح ويرشح.

قال له السيّد لوبيك: لقد أُصبْتَ ونزفت بشكل طريف!

وأضافت أخته التي ضمّدت جرحه: كأنّما المعول انغرز في قطعة من الزبدة.

لم يصرخ، لأنهم نبّهوه إلى أنّ ذلك لا يجدي نفْعاً.

لكنْ ها هوَذا الأخ الأكبر فيليكس قد فتح إحدى عينيه، ثمّ الأخرى. لقد نجح في التخلّص من الخوف، وبما أن سحنته بدأت تستعيد لونها فقد غادر القلق والهلع القلوب.



- إنّكَ لا تتغيّر أبداً إذَنْ! قالت السيّدة لوبيك لابنها أصهب؛ أما كان في مقدوركَ أن تعمل انتباهكَ أيّها الغبيّ!

البندقيّة

قال السيّد لوبيك لابنَيه:

- تكفيكما بندقية واحدة. الإخوة المتحابّون يتقاسمون كلّ شيء.

- نعم يا أبي، أجاب الأخ الأكبر فيليكس، سوف نشترك في استخدام البندقية. بل يكفيني أن يعيرها لي أصهب من وقت لآخر.

لم يُجب أصهب سلباً ولا إيجاباً، كان حذراً.

سحب السيّد لوبيك البندقية من غمدها الأخضر وسأل:

- مَن منكما سيحملها أوّلاً؟ أعتقد أنه دور الابن البكر.

الأخ الأكبر فيليكس: أتخلّى عن هذا الشرف لأصهب. فلْيبدأ هو!

السيّد لوبيك: فيليكس أنت تتصرّف بلطف هذا الصباح. لن أنسى لك ذلك.

وضع السيّد لوبيك البندقية على كتف أصهب.

السيّد لوبيك: هيّا يا ولديَّ، تسلّيا ولا تتخاصما.

أصهب: هل نأخذ معنا الكلب؟

السيّد لوبيك: لا حاجة إليه. على كلّ واحد منكما أن يلعب دور الكلب بالتناوب. زدْ على ذلك أنّ صيّاديْن مثلكما لا يجرحان الطريدة بل يقتلانها رأساً.

ابتعد أصهب والأخ الأكبر فيليكس. كانا يرتديان ثيابهما المعتادة وتأسّفا لعدم امتلاكهما جزمتيْن، غير أنّ السيّد لوبيك لم ينفكّ يقنعهما بأنّ الصيّاد الحقيقي يكره ارتداء الجزمة. سروال الصيّاد الحقيقي يتدلّى إلى عقبيْه ولا يشمّره أبداً. ويمشي هكذا متخبّطاً في الوحل وفي الأراضي المحروثة، وسرعان ما يكتسب جزمتيْن ترتفعان حتّى ركبتيْه، صلبتيْن، طبيعيّتيْن وجديرتين بالاحترام.

- أعتقد أنك لن تعود خائباً، قال الأخ الأكبر فيليكس.

- لي أمل كبير، قال الفتى أصهب.

أحسّ بحكّة في موضع احتكاك البندقية بكتفه وظلّ يحاول إبعاد أخمصها عنه.

- هه! قال الأخ الأكبر فيليكس، سوف أتركك تتمتّع بحملها وحدك كما تشاء!

- أنت أخي، قال الفتى أصهب.

عندما طار سرب من عصافير الدوريّ توقّف أصهب وأشار إلى الأخ الأكبر فيليكس بعدم التحرّك. بدأ السرب ينتقل من أجمة إلى أخرى. تقدّم الصيّادان مقوّسَي الظهر، ومن دون إحداث ضجّة كما لو كانت طيور الدوري نائمة. لم يلبث السرب طويلاً وانتقل مزقزقاً إلى موضع آخر. انتصب الصيّادان واقفيْن. بدأ الأخ الأكبر فيليكس يشتم ويسبّ. أمّا أصهب، وعلى الرغم من خفقان قلبه، فقد بدا أكثر صبراً. كان يخشى اللحظة التي سيبرهن فيها على براعته.

ماذا لو أخفق في إصابة الهدف؟ لذلك بدا له كلّ تأخير مريحاً.

والحال أنّ عصافير الدوريّ بدت، هذه المرّة، وكأنها تنتظره.

الأخ الأكبر فيليكس: لا تُطلقْ، أنت بعيد جدّاً.

أصهب: هل تظنُّ ذلك؟

الأخ الأكبر فيليكس: بالتأكيد! هناك خديعة في الانحناء.



نظنّ أننا اقتربنا؛ والحال أننا لا نزال بعيدين جدّاً.

وكشف الأخ الأكبر فيليكس عن حضوره لكي يبرهن على صحّة ما ذهب إليه. أصيبت العصافير بالهلع وطارت.

غير أنّ واحداً منها ظلّ هناك، على غصن يتمايل فيؤرجحه. كان يرفع ذيله ويحرّك رأسه ويعرّض صدره.

أصهب: صدّقني، هذا، أستطيع إصابته، أنا متأكّد.

الأخ الأكبر فيليكس: تنحَّ قليلاً لأُعايِن. بالفعل، هو في متناولك. بسرعة أعِرْني بندقيّتك.

وسرعان ما كان أصهب منزوع السلاح بيدين فارغتيْن وهو يتثاءب: وبدلاً منه كان الأخ الأكبر فيليكس أمامه يتنكّب البندقيّة، يسدّد، يطلق، فيسقط عصفور الدوريّ.

كان الوضع أشبه بلعبة تمويه. فأصهب كان منذ قليل يشدّ البندقية إلى صدره. بغتةً فقدها، وهاهو يستعيدها، لأنّ الأخ الأكبر فيليكس أعادها إليه بسرعة، ثمّ أسرع ليلعب دور الكلب ملتقطاً عصفور الدوريّ، قائلاً له:

ـ أنت لا تتقدّم كثيراً. ينبغي أن تسرع قليلاً.

أصهب: بل كثيراً.

الأخ الأكبر فيليكس: حسناً، لقد بدأت تغضب!

أصهب: أجل، وهل تريد مني أن أغنّي؟

الأخ الأكبر فيليكس: ممَّ تشكو الآن وقد حصلنا على الدوريّ؟ تصوّرْ أنه كان من الممكن ألاّ نصيبه.

أصهب: آه! أنا...

الأخ الأكبر فيليكس: أنت أو أنا، نفس الشيء. لقد قتلته أنا اليوم، وسوف تقتله أنت غداً.

أصهب: آه! غداً.

الأخ الأكبر فيليكس: أعدك بذلك.

أصهب: أعرف، أنت وعدتني بذلك مساء أمس.

الأخ الأكبر فيليكس: أقسم لك على ذلك؛ هل أنت راضٍ؟

أصهب: يعني!... لكن لو بحثنا الآن عن عصفور آخر؛ لأتمكّن من تجريب البندقيّة.

الأخ الأكبر فيليكس: لا، الوقت متأخّر كثيراً. فلْنعُدْ حتّى تتمكّن أمّي من طهي هذا. أنا أهبك إيّاه. ضعه في جيبك، يا غبيّ، وأدخِل المنقار.

عاد الصيّادان إلى البيت. وفي الطريق كانا يلتقيان أحياناً بمُزارع يحيّيهما ويقول مازحاً:

ـ لا أعتقد أنكما قتلتما أحداً، أليس كذلك؟

شعرَ أصهب بالفخرِ ونسيَ غيظَه. فوصلا متصالحيْن، منتصريْن، وما إن رآهما السيّد لوبيك حتّى أبدى دهشته:

- كيف يا أصهب؟ أما زلت تحمل البندقيّة حتّى الآن! وهل حملتها كلَّ الوقت؟

- تقريباً، أجاب الفتى أصهب.

الخُلْد[1]

عثر أصهب في طريقه على خُلْد أسود مثل حبّة باذنجان. بعد أن لعب به كما أراد قرّر قتله. قذفه في الهواء عدّة مرّات بطريقة مدروسة حتّى يسقط على حجر مباشرةً.

في البداية سار كلّ شيء على ما يرام وبمهارة.

لقد تهشّمت قوائم الخُلد وانفلق رأسه وانكسر ظهره وحان أجله.

لكن أصهب فوجئ بالخُلْد يستعصي على الموت. وعبثاً رماه إلى ارتفاع أعلى، إذْ لم تتغيّر النتيجة.



ـ الداهية ابن الداهية! لم يمت حتّى الآن، قال.

وفي الواقع كان الخلد يتلوّى على الحجر الملطّخ بالدم، وبدا بطنه الكثير الشحم يرتعش مثل « الجلي» الهلاميّ فيعطي انطباعاً بالحياة جرّاء تلك الرعشات.

- الداهية ابن الداهية! صاح أصهب الذي استشرس أكثر، لم يمت بعد!

التقطه مجدّداً وشتمه وغيّر في الطريقة.

ازدادت حمرة وجهه وسالت دموعه وهو يبصق على الخلد ويلقيه على الحجر، عن قرب وبكل ما أوتي من قوّة.

غير أن البطن الهلاميّ ظلّ يتحرّك.

وكلّما أعاد أصهب الحانق الكرّة بدا له الخلد أبعد ما يكون عن الموت.

البرسيم

كان أصهب والأخ الأكبر فيليكس يعودان من الصّلاة في الكنيسة مسْرعيْن لبلوغ البيت، لأنّ موعد تناول العصرونيّة قد حان.

سيحصل الأخ الأكبر فيليكس على قطعة خبز مطليّة بالزبدة أو المربّى، أمّا أصهب فلن يحصل إلاّ على قطعة خبز من دون أي شيء آخر، لأنه أراد البرهنة على رجولته مبكّراً، وأعلن أمام الشهود أنه ليس شرِهاً. فهو يحبّ تناول الأشياء طبيعيّة، كما هي، ويأكل قطعة الخبز الحاف بتلذّذ، وهاهو ذا في هذا المساء أيضاً يحثّ الخطى أكثر من الأخ الأكبر فيليكس، كي يأكل قبله.

أحياناً يبدو الخبز الحاف يابساً. عندئذ ينقضّ عليه أصهب كما لو كان يهاجم عدوّاً، فيشدّه ويهجم عليه بأسنانه وبرأسه حتّى يفتّته ويجعله يتناثر قطَعاً. وفي الأثناء يتفرّج عليه أهله المصطفّون حوله بكلّ فضول.

ومن شأن معدته التي تشبه معدة نعامة أن تهضم الحجارة أو قطعة نقديّة قديمة أتى عليها الصدأ.

وباختصار فإنه لا يبدو صعب التغذية أبداً.

ضغط على مزلاج الباب فكان مغلقاً.

- أظنّ أنّ عائلتنا ليست في الداخل. دقّ أنت بقدمك، قال.

اندفع الأخ الأكبر فيليكس شاتماً نحو الباب الثقيل المرصّع بالمسامير وجعلَه يدوّي طويلاً. ثمّ وحّد الاثنان جهديْهما عبثاً إذْ خرجا برضوضٍ في الكتفين.

أصهب: مؤكّد أنهم ليسوا في البيت.

الأخ الأكبر فيليكس: ولكن أين عساهم يكونون؟

أصهب: لا يمكننا معرفة كلّ شيء. فلنجْلسْ.

كانت درجات السلّم باردة تحت ردفيْهما، أحسّا بجوع غير معتاد. وعبّرا عن شدّته بالتثاؤب وبما يشبه لكمات في تجويف الصدر.

الأخ الأكبر فيليكس: وهل يعتقدون أنني سأنتظرهم؟



أصهب: ومع ذلك فهذا هو أفضل ما علينا فعله.

الأخ الأكبر فيليكس: لن أنتظرهم، أنا لا أريد الموت جوعاً. أريد الأكل حالاً، أيّ شيء، حتّى العشب.

أصهب: العشب! فكرة! وسوف يُفاجأ الأهل.

الأخ الأكبر فيليكس: أجل! فنحن نأكل السَّلَطة. والبرسيم مثلاً، بيني وبينك، طريّ مثل السَّلَطة. إنه سلَطة من دون زيت وخلّ.

أصهب: ولا نحتاج إلى التحريك والخلط.

الأخ الأكبر فيليكس: هل تراهن بأنني أستطيع أكل البرسيم في حين لن تستطيع أنت؟

أصهب: ولمَ تستطيع أنت ولا أستطيع؟

الأخ الأكبر فيليكس: اتركِ المزحَ جانباً، هل تراهن؟

أصهب: لكنْ، ماذا لو طلبْنا من الجيران قطعتيْ خبز مع لبن رائب نضعه على الخبز؟

الأخ الأكبر فيليكس: أنا أفضّل البرسيم.

- ليكنْ! قال أصهب.

وسرعان ما نشرَ حقل البرسيم خضرته الشهيّة أمام عينيهما. ومنذ دخولهما استمتعا بجرّ حذائيْهما عليه وسحق السويْقات الهشّة، وفتح مسالك ضيّقة سوف تبعث القلق في الآخرين وتجعلهم يتساءلون:

- تُرى أيّة بهيمة مرَّتْ من هنا؟

تسلّلت الرطوبة عبر سرواليهما وبلغت الربلتين اللّتين بدأتا تتخدّران.

توقّفا في وسط الحقل وانبطحا.

- نحن في وضع جيّد، قال الأخ الأكبر فيليكس.

كانت نباتات البرسيم تدغدغ وجهيْهما فيضحكان كما كانا يفعلان في الماضي عندما ينامان في سرير واحد وتصيح بهما السيّدة لوبيك من الحُجرة المُجاورة:

- ألا تنامان أيها القذران؟

نسيا الجوع وشرعا يسبحان على طريقة البحّار ثمّ الكلب ثمّ الضفدعة، ولا يظهر من البرسيم إلاّ رأساهما. فيجزّان المويْجات الخضراء بيديهما ويدفعانها بقدميهما لتتقصّف بيسر ولا تتجمّع من جديد بعد ذبولها وموتها.

- وصل البرسيم إلى ذقني، قال الأخ الأكبر فيليكس.

- انظرْ كيف أتقدّم، قال أصهب.

وكان عليهما أن يستريحا قليلاً من أجل التمتّع بسعادتهما أكثر.

استندا إلى مرفقيْهما وشرعا يتابعان بعينيهما أنفاق التراب التي تحفرها حيوانات الخُلد فتتعرّج على سطح الأرض مثل عروق المسنّين على جلودهم. فكانت رؤيتها تنقطع مرّة وتظهر مرّة أخرى في فُرجة تنبت فيها طفيليات «الكَشُوت» القارضة أو «كوليرا البرسيم» ذات الشعيْرات الحمراء. كانت بيوت الخُلد المتكوّنة من أكوام التراب تشكّل قرية صغيرة من أكواخ ضئيلة الحجم ومنتصبة على طريقة الهنود الحمر.



- لم نبدأ بالأكل بعد، قال الأخ الأكبر فيليكس، هيّا، أنا سأبدأ. انتبهْ! لا تأكلْ من حصّتي.

ورسم بذراعه قوس دائرة.

- ما تبقّى يكفيني، قال أصهب.

اختفى الرأسان. من يمكنه كشفهما؟

كانت الريح تهبّ بنسمات رقيقة فتقلب وريْقات البرسيم النحيلة، وتُظهر اصفرارها في الأسفل فيما الحقل كلّه يتموّج.

اقتلع الأخ الأكبر فيليكس حزمة من العلف وغطّى بها رأسه وتظاهر بالأكل مقلّداً الصوت الذي يُحدثه فكُّ عِجلٍ صغير بدأ ينتفخ لقلة خبرته. وتظاهر بالتهام كلّ البرسيم بما فيه الجذور، لأنّه إنسان مجرّب ويعرف ما هي الحياة، فصدّقه أصهب، لكنّه كان أكثر اعتناء في انتقاء الوريْقات الجميلة.

يثنيها بأرنبة أنفه ويضعها في فمه ثمّ يمضغها بتمهّل.

ولمَ العجلة؟ ألم تكن تلك مأدبةً بلا مقابل، تتبرّع بها الطبيعة؟

ظلّ يمضغ ويبلع، بأسنان تصرّ، ولسان مرّ، وقلب يحاذي الغثيان، من دون أن ينقطع عن التلذّذ.

الكوب

لم يعد أصهب في حاجة إلى شرب شيءٍ وهو جالس إلى المائدة. لقد فقد عادة الشّرب في بضعة أيّام وبسهولة فاجأت عائلته وأصدقاءه. في البداية قال ذات صباح للسيّدة لوبيك التي كانت تملأ له كوب الشّراب كالمعتاد:

- شكراً يا أمّي لست عطشان.

وخلال وجبة العشاء كرّر القول:

- شكراً يا أمّي لست عطشان.

- صرتَ مقتصداً، قالت السيّدة لوبيك. هذا في صالح الآخرين.

وهكذا بقي طيلة ذلك اليوم الأول من دون أن يشرب لأن درجة الحرارة معتدلة فضلاً عن كونه لم يشعر بالعطش أصلاً.

وفي الغد سألته السيّدة لوبيك وهي تجهّز المائدة:

- واليوم؟ هل ستشرب يا أصهب؟

- في الواقع، لست أدري.

- كما تريد، قالت السيّدة لوبيك، إذا كنتَ بحاجة إلى كوبكَ، يمكنك تناوله من الخزانة.

ولم يذهب للإتيان به. فهل كان ذلك عن نزوة أم عن نسيان، أم كان خوفاً من خدمة نفسه بنفسه؟

وزادت الدهشة طبعاً:

- أنت في تحسّن، قالت السيّدة لوبيك؛ وها إنّك تكتسب مَلَكَة إضافيّة.

- هي مَلَكَة نادرة، قال السيّد لوبيك. وسوف تخدمك في المستقبل بالخصوص، إذا ما وجدتَ نفسك وحيداً، تائهاً في إحدى الصّحارى، من دون جمَل.

راحَ الأخ الأكبر فيليكس والأخت إرنستين يُراهنان. قالت الأخت إرنستين:

- سوف يتمكّن من البقاء أسبوعاً كاملاً من دون أن يشرب.

الأخ الأكبر فيليكس: مهلاً، إذا صمد ثلاثة أيام، حتّى الأحد، سيكون ذلك جميلاً.

- لكن، قال أصهب وهو يبتسم بلطف، لن أشرب أبداً إذا لم أعطش. انتبهوا للأرانب، هل تدركون بعض مزاياها؟

- شتّان بينك وبين الأرانب، قال الأخ الأكبر فيليكس.

قد يكون أصهب تحسّس من تلك الملاحظات لكنه سوف يبرهن لهم على مقدرته. ظلّت السيّدة لوبيك تتجاهل الكوب. وكابرَ هوَ كي لا يطالب به. فهو يتقبّل المجاملات الساخرة وشهادات الإعجاب الصادق باللاّمبالاة نفسها.

- إمّا أنه مريض أو مجنون، يقول البعض.

ويقول الآخرون: إنّه يشرب لكنْ خفيةً.

كلّ جديدٍ له بهجة. لكنّ عدد المرّات التي يُخرج فيها أصهب لسانه كي يبرهن للآخرين بأنَه لا يشكو من الجفاف راح يتضاءل بالتدريج.

لقد سئم الأهل والجيران، ولم يبقَ إلاّ بعض الغرباء الذين يرفعون أيديهم للسماء عندما تُروى لهم الحكاية:

ـ أنتم تبالغون؛ لا أحد يفلت من متطلّبات الطبيعة.

وقال طبيب استُشيرَ في الأمر إنّ الحالة تبدو له غريبة، لكن ما من مستحيل في نهاية المطاف.



وكان أصهب يخشى أن يُصاب بمكروه ما، لأنه فوجئ هو نفسه، فاعترف بأنّ العناد الدائم يمكّن المرء من فعل ما يريد. لقد ذهب به الظنّ إلى أنه فرض على نفسه حرماناً مؤلماً، وقام بعمل بطوليّ، غير أنه لم يشعر بأيّ انزعاج من ذلك. بل هو في وضع صحيّ أفضل من ذي قبل. ولو تمكّن من قهر جوعه كما فعل مع العطش لفعل! وهكذا يصوم، ويقتات على الهواء.

لم يعدْ يتذكّر كوبَ الشراب. ولم يعد يحتاج إليه منذ زمن طويل. زدْ على ذلك أن الخادمة هونورين تنوي ملء الكوب بعقّار «التريبولي» الأحمر لتنظيف الشمعدانات.

لبّ الخبز

لا يبخل السيّد لوبيك بتسلية أبنائه عندما يكون مزاجه رائقاً. فيروي لهم حكايات بين ممرّات الحديقة، ويحدث أحياناً أن يستلقي الأخ الأكبر فيليكس وأصهب على الأرض من شدّة الضحك. هذا الصباح لم يعودا قادريْن على تمالك نفسيْهما لولا قدوم الأخت إرنستين لتُعلمهم بأنّ الغداء جاهز. وهكذا استرجعا هدوءهما. فلدى كلّ اجتماع للعائلة تعبس الوجوه.

يتمّ تناول الغداء كالمعتاد، بسرعة ومن دون أي نفَس استراحة أو كلام، إلى درجة أنّه يمكن ترك المائدة لأناس آخرين لو كانت مستأجرة. وعندما تقول السيّدة لوبيك:

- هلاّ ناولتني قطعة من لبّ الخبز، من فضلك، كي أنهي صحن الفاكهة المطبوخة بالسكّر؟

لمن يكون خطابها موجَّهاً يا ترى؟

في معظم الأحيان تخدم السيّدة لوبيك نفسها بمفردها، ولا تتكلّم إلاّ إذا خاطبت الكلب. فتخبره بسعر الخضار، وتوضّح له صعوبة التوصّل، في هذا الوقت الصعب، إلى إعالة ستّة أشخاص وكلب بالقليل من المال.



- كلاّ، تقول للكلب بيرام الذي يزمجر متودّداً ويضرب الحصير بذيله، لا تعرف معاناتي في إدارة شؤون هذا البيت. أنت تتصوّر، مثل البشر، أن سيّدة البيت تتدبّر أمرها من لا شيء، ولا يهمّك إذا زاد ثمن الزبدة أو صار يتعذّر اقتناء البيض لغلائه أيضاً.

أمّا في هذه المرّة فقد صنعت السيّدة لوبيك الحدث. إذْ أنها، وبطريقة استثنائية، خاطبت السيّد لوبيك مباشرة. وحتّى طلبها قطعة لبّ الخبز كي تنهي صحن الفاكهة المطبوخة بالسكّر، كان موجّهاً إليه، نعم إلى السيّد لوبيك. لا أحد يمكنه التشكيك في ذلك. فهي منذ البداية نظرت إليه. وثانياً كان الخبز قريباً من السيّد لوبيك. لذلك اندهش وتردّد، ثمّ تناول، من صحنه، قطعة من لبّ الخبز بأطراف أصابعه، وبكلّ جدّية وتجهُّم رماها إلى السيّدة لوبيك.

مزحة أم مأساة؟ من يدري؟

تأثّرت الأخت إرنستين لإهانة أمّها وأحسّت برعشة خوف غامضة.

- أبي في واحد من أيامه السعيدة، قال الأخ الأكبر فيليكس محدّثاً نفسه، وهو يهتزّ جامحاً على كرسيّه.

أمّا أصهب الكتوم فقد تمالك نفسه، وقد ملأ الفُتات شفتيْه والضجيج أذنيْه، ونفخت البطاطا الناضجة خدّيْه. لكنّه سينفجر إذا لم تغادر السيّدة لوبيك المائدة فوراً، لأنها أُهينت أمام ابنيْها وابنتها!

البوق

هذا الصباح وصل السيّد لوبيك من باريس. فتح صندوقَ أمتعته. وأخرج منه هدايا للأخ الأكبر فيليكس وأخته إرنستين، هدايا جميلة حقّاً، وهي نفسها (ويا للطرافة!) التي حَلُمَا بها طيلة الليل. بعد ذلك، أخفى السيّد لوبيك يديه خلف ظهره ونظر بخبث إلى أصهب وقال له:

ـ وأنت، ما الذي تفضّله أكثر: البوق أم المسدّس؟

يتّسم أصهب، في الحقيقة، بكونه أقرب إلى الحذر منه إلى التهوّر. لذلك من شأنه أن يُفضّل البوق لأنه لا يمكن أن ينفجر بين الأصابع؛ غير أنه كثيراً ما سمع بأنّ فتىً في مثْل قامته لا يمكنه اللعب حقّاً إلاّ بالأسلحة والسيوف وكلّ معدّات الحرب. لقد بلغ العمر الذي يتطلّب شمّ رائحة البارود والقضاء على أشياء كثيرة. وبما أن أباه يفهم نفسيّة الأطفال فقد أتى له بما ينبغي.

ـ أفضّل المسدّس، قال بجرأة، واثقاً من توقّعه للهديّة.

بل وذهب إلى ما هو أبعد من ذلك عندما أضاف:

ـ لا حاجة لإخفائه، فقد رأيته!

ـ نعم؟ قال السيّد لوبيك منزعجاً، صرتَ تفضّل المسدّس! لقد تغيّرتَ إذن؟

وعلى الفور استدرك أصهب قائلاً:

ـ كلاّ يا أبي، كنت أمزح. اطمئن، أنا أكره المسدّسات. أعطني بوقي بسرعة حتّى أُريك كيف أتسلّى بالنفخ فيه.



السيّدة لوبيك:

- إذن لماذا تكذب؟ لكي تعذّب أباك، أليس كذلك؟ من يحبّ الأبواق لا يقول أحبّ المسدّسات، ولا يقول بالخصوص إنّه يرى مسدّسات والحال أنّه لا يرى شيئاً. وحتّى ألقّنك درساً، لن تحصل على مسدّس ولا على بوق. انظرْ إلى البوق مليّاً: له ثلاثة أشرطة حمراء وعَلَمٌ بشراشيبَ ذهبيّة. لقد تفرّجت عليه بما فيه الكفاية. اذهبْ وابحث عنّي في المطبخ، انقلعْ! زمّر وصفّرْ بأصابعك.

وهكذا ظلّ بوق أصهب في أعلى الخزانة، فوق طبقة من الأقمشة البيضاء المطويّة، ملفوفاً وسطَ أشرطته الثلاثة الحمراء وعلَمه ذي الشّراشيب الذهبيّة، ينتظر من ينفخ، منيعاً، غير مرئيّ، أخرس، مثل بوق يوم الحساب الأخير.

خُصْلة الشَّعر الأولى

يوم الأحد تُجبر السيّدة لوبيك ابنيْها على الذهاب إلى قُدّاس الكنيسة. فيخضعان للتجميل وتتولّى الأخت إرنستين بنفسها تلك المهمّة رغم المجازفة بالتأخّر في زينتها الشخصيّة. فتختار ربطة العنق وتبْرد الأظافر وتوزّع كتب الصّلاة مخصِّصة أكبرها لأصهب. لكنّ أبرز ما تقوم به هو استخدام المرْهم لتلميعِ بشرة أخويها.

هذا هو هوَسُها الأكبر.

وإذا كان أصهب ينقاد بكلّ سهولة فإنّ الأخ الأكبر فيليكس لا ينفكّ يحذّر أخته بأنه سيفقد صبره ويغضب لذلك تعمد إلى الغشّ:

- هذه المرّة سهوتُ قيلاً، ولم أتعمّد ذلك، وأقسم لك بأنّني لن أضعَ لك منه ابتداءً من الأحد القادم.

وفي كلّ مرّة تتمكّن من دهْنه بشيءٍ من المرهم.

- سوف تحدث بليّة، قال الأخ الأكبر فيليكس.



هذا الصباح كان يحني رأسه ملفوفاً بفوطته، وبسبب احتيال الأخت إرنستين لم ينتبه إلى أيّ شيء.

ـ أنا معك وأطيعك، قالت، لن تتذمّر بعد اليوم. انظرْ، ألا ترى إناء المرهم مغلقاً هناك فوق المدفأة، ألستُ لطيفةً معك؟ وهذا ليس فضْلاً منّي على أيّة حال. فأصهب يحتاج إلى الإسمنت كي يُملّس شعرُه، أمّا أنت فشعرك لا يحتاج إلى دهن. إنه يتجعّد و يتموّج وحده. رأسك يشبه رأس قنّبيط. وهذا الفرْق في شعرك سوف يدوم حتّى الليل.

ـ أشكرك، قال الأخ الأكبر فيليكس.

ثمّ نهضَ بلا ارتياب. ونسيَ التأكّد من الأمر كما اعتاد، بتمرير يده على شعره.

كستْه الأخت إرنستين وجمّلته وألبسته قفّازيْن من الحرير الأبيض.

ـ تمّ الأمر؟ قال الأخ الأكبر فيليكس.

ـ أنت تلمع مثل أمير، قالت الأخت إرنستين، لا تنقصك إلاّ قبّعتك. اذهبْ وابحثْ عنها في الخزانة.

غير أنّ الأخ الأكبر فيليكس ارتكب خطأً. مرّ أمام الخزانة. ركض باتجاه المطبخ، وفتح الباب، وتناول دورقاً مملوءاً بالماء وأفرغه فوق رأسه بكلّ هدوء.

- لقد حذّرْتُك يا أختي، قال. لا أحبّ أن يسخر منّي أحد. ما زلتِ أصغر من أن تخدعي كبيراً مثلي. إنْ عدْتِ إلى صنيعك سوف أذهب لأُغرِقَ مرهمكِ في النهر.

تملّسَ شعره وابتلّت بدلة الآحاد التي صارت تنضح ماء، فيما مكث مبتلاًّ ينتظر أن تُغيَّر ثيابه أو أن تجفَّ بأشّعة الشمس، لا فرق: الأمران سيّان عنده.

- يا له من شخص! قال أصهب في نفسه، وقد جمّده الإعجاب. هو لا يخشى أحداً، ولو أنّني حاولتُ تقليده لحدث ما لا تُحمد عقباه. من الأفضل أن أجعلهم يعتقدون أنّني لا أكره المرهم.

وفيما كان أصهب يستسلم بقلبٍ اعتاد الخضوع، كان شعره هو الذي ينتقم له من دون عِلمه.

فقد كان شعره يظلّ مملَّساً لوقت طويل تحت المرهم وكأنه مات، ثمّ ينتعش، وباندفاعٍ خفيٍّ يُحزّز قالبَه الخفيف اللاّمع ثمّ يجعله ينْفلق وينهار.

كان الأمر يبدو أشبه بشتلةِ زرعٍ ذاب عنها الجليد.

وسرعان ما كانت خُصلةُ شعرٍ أولى تعاود الظهور وتنتصب في الهواء، مستقيمة، حرّة.

الاستحمام

نظراً لاقتراب الساعة الرابعة، ذهب أصهب بكلّ نشاط ليوقظ السيّد لوبيك والأخ الأكبر فيليكس اللّذيْن ينامان تحت أشجار البندق في الحديقة.

- هل سننطلق؟ قال.

الأخ الأكبر فيليكس: هيّا بنا، البسْ سروالك القصير!

السيّد لوبيك: ما زال الطقس حارّاً جدّاً.

الأخ الأكبر فيليكس: أنا أحبّ الوصول والشمس مشرقة.

أصهب: وهناك على حافة الماء ستكون أحسن، يا أبي، سوف تستلقي على العشب.

السيّد لوبيك: سيرا أمامي. رويداً رويداً. هكذا لا يصيبكما مكروه.

ظلّ أصهب لا يكاد يتمكّن من تخفيف مشيته، وأحسّ بتنميل في قدميه. كان يحمل على كتفه سرواله القصير المتقشّف والخالي من الألوان وسروال الأخ الأكبر فيليكس بلونيه الأحمر والأبيض. وبوجه بشوش كان يثرثر ويغنّي لنفسه ويقفز ممسكاً بالأغصان. لقد بدأ بالسباحة في الهواء، وقال للأخ الأكبر فيليكس:

- هل تتوقّع أن يكون الماء مناسباً للسباحة؟ سنلهو كثيراً، هه!

- خبيث! قال الأخ الأكبر فيليكس، محتقراً ومركّزاً.

وبالفعل، هدأ أصهب فجأة.

فقد كان هو أوّل منْ تخطّى، بخفّة، جداراً صغيراً من الحجارة الجافّة، ليظهر النهر بغتةً أمامه. لقد انتهى وقت الضحك.

لاحت انعكاسات باردة تتمرأى على سطح الماء الفاتن. كان الماء يصخب كأسنان تصطكّ ويبعث رائحة تفِهة.

والمقصود دخول ذلك الماء والبقاء فيه وتمضية الوقت فيما السيّد لوبيك يُحصي في ساعته عدد الدقائق النظاميّة. ارتعشَ أصهب. ها هي ذي شجاعته التي ظلّ يحرّضها لتدوم، تخونه في الوقت المواتي، وزادت رؤية الماء، الجذّاب من بعيد، في شعوره بالضيق.

بدأ أصهب يخلع ثيابه، منزوياً. ولم يكن يرغب في إخفاء هُزاله وقدميه بقدر ما كان يريد الارتجاف وحيداً من دون أن يشعر بالخزي.

خلع ثيابه قطعة قطعة وطواها بعناية فوق العشب. ربط سيور حذائه وها هوذا لا ينتهي من حلّها.

ارتدى سرواله القصير، وخلع قميصه. ولأنه ينضح عرقاً مثل سكّر تفّاح يدبّق حزامه الورقيّ، فضّل الانتظار أكثر.

في تلك الأثناء بلغ الأخ الأكبر فيليكس ماء النهر وبدأ يتخبّط فيه بدراية. يضرب الماء بذراعه وبقدمه ويجعله يُزْبد، فيلوح متوسّطاً قطيعاً من الزبد الهائج، دافعاً به إلى الضفّتيْن.

- هل غيّرْتَ رأيك يا أصهب؟ سأله السيّد لوبيك.

- كنت أتجفّف، قال أصهب.

وأخيراً اتّخذ قراره. جلس على الأرض، مدّ ساقه، وشرع يجسّ الماء بإصبع سحقَها حذاؤه الضيّق. وفي الوقت نفسه أخذ يدلّك معدته، لعلّها لم تنتهِ من عمليّة الهضم بعد. ثمّ انقاد متزحلقاً بين جذور النباتات.

خدشتْ تلك النباتات ربلتيْ ساقيه وفخذيْه وإليتيه. وعندما بلغ الماء بطنه خرج ناجياً بجلده. خُيِّل له أن خيطاً مبلولاً بدأ يلتفّ تدريجيّاً حول جسمه كما يلتفّ الخيط على الخذروف. غير أنّ كومة التراب التي اتّكأ عليها انهارت، فسقط أصهب، واختفى، وتخبّط، ثمّ انتصب من جديد وقد انتابته نوبة سعال وبصاق وارتعاش وعمى ودوار.

- أنت تجيد الغطس، يا بنيّ، قال له السيّد لوبيك.

- نعم، قال أصهب، رغم أنّني لا أحبّ ذلك كثيراً. الماء يبقى داخل أذنيَّ وقد يتسبّب لي ذلك بألم في الرأس.

بحثَ عن موضع يتمكّن فيه من تعلّم السباحة، أي تحريك ذراعيْه فيما تزحف ركبتاه على الرمل.

- أنت تستعجل كثيراً، قال له السيّد لوبيك. لا تُحرّك قبضتيْك مغلقتيْن كما لو كنتَ تقتلع شَعرك. حرّك ساقيك العاطلتين عن أيّ حركة.

- تصعب السباحة من دون استخدام الساقين، قال أصهب.

لكن الأخ الأكبر فيليكس يمنعه من التركيز ويزعجه دائماً.

- تعال هنا يا أصهب. الماء أعمق. أنا أفقد السيطرة، أنغرز أكثر. انظرْ: تراني؟ انتبهْ: لم تعد تراني. الآن غيّر مكانك واذهبْ إلى هناك نحو شجرة الصفصاف. لا تتحرَكْ. أراهنك أنني سأصل عندك بعشر دفعات من ذراعي.



- سأتولّى العدّ، قال أصهب مرتجفاً، كتفاه خارج الماء، وهو ثابت لا يتحرّك مثل صوى أو علامة حجريّة.

قرفص من جديد كي يسبح. غير أن الأخ الأكبر فيليكس ارتمى عليه وتسلّق ظهره ثمّ قفز في الماء وقال:

- جاء دورك الآن، إنْ أردت، تسلّقْ ظهري.

- دعْني أتابع درسي بهدوء، قال أصهب.

- تمام، قال السيّد لوبيك، اخرجا من الماء. تعالا لاحتساء قطرة «روم».

- حان الوقت بسرعة! قال أصهب.

الآن لم يعد يرغب في الخروج. لم يتمتّع جيّداً بالسباحة. والماء الذي تنبغي مغادرته لم يعد يُخيفه.

في البداية كان مثل الرصاص داخل الماء والآن هو مثل الريشة، يتخبّط فيه بنوع من البسالة الجنونية، متحدّياً الخطر، مستعدّاً للمجازفة بحياته لإنقاذ شخص، وها هو ذا يختفي إراديّاً تحت الماء كي يختبر جزَع المشرفين على الغرق.

- أسرِعْ، صاح به السيّد لوبيك، وإلاّ فإنّ الأخ الكبر فيليكس سوف يستأثر بنصيبك من المشروبات.

ورغم أنّ أصهب لا يحبّ المشروبات فقد قال:

- أنا لا أعطي حصّتي لأحد.

وشرب حصّته مثل جنديّ محنّك.

السيّد لوبيك: لم تغتسل جيّداً، ما زالت الأدران عالقة بعُرْقوبيْ قدميْك.

أصهب: هذا تراب يا أبي.

السيّد لوبيك: كلاّ، إنها أدران.

أصهب: هل ترغب في أن أعود إلى الماء، يا أبي؟

السيّد لوبيك: سوف تُزيل ذلك غداً، لأننا سنعود مرّة أخرى.

أصهب: ليت الحظّ يُسعفنا بطقس جميل!

تنشّف بأطراف أصابعه مستخدماً الزوايا الجافة من المنشفة، تلك التي لم يبلّلها الأخ الأكبر فيليكس، وبرأس ثقيل وحلق ناشف انفجر بالضحك لفرط ما سخر السيّد لوبيك والأخ الأكبر فيليكس من أصابع قدميْه المبرومة مثل النقانق.

هونورين

السيّدة لوبيك: كم صار عمركِ يا هونورين؟

هونورين: بلغتُ السابعة والستّين منذ عيد جميع القديسين سيّدتي لوبيك.

السيّدة لوبيك: ها قد بلغتِ الشيخوخة، أيتها العجوز المسكينة!

هونورين: هذا لا يعني شيئاً ما دامت هناك قُدرة على العمل. لم أمرضْ أبداً. أعتقد أنّ الخيل أقلّ منّي صلابة.

السيّدة لوبيك: هل ترغبين في أن أخبرك بشيء يا هونورين؟ سوف تموتين فجأةً، ذات مساء، عندما تكونين عائدة من النهر، سوف تشعرين أنّ سلَّتك التي تحملينها على ظهرك صارت تثقل عليك أكثر من ذي قبل، وعجلتك النقّالة أصعب دفعاً ممّا كانت عليه في الأماسي السابقة؛ وسوف تسقطين على ركبتيك بين النقّالات... وأنفك فوق غسيلك المبلَّل، وهكذا تكونين قد ضعتِ، فيرفعونك ميتة.

هونورين: أنت تُضحكينني يا سيّدة لوبيك؛ لا تخافي؛ ما زالت ساقاي وذراعاي بخير.



السيّدة لوبيك: أنتِ تنحنين قليلاً، صحيحٌ ذلك، لكن عندما يتقوّس الظهر يتمكّن المرء من الغسل بأقلّ تعب في الكلْيتيْن. خسارة أنّ نظرك خفّ! لا تنكري ذلك يا هونورين! لاحظت ذلك منذ زمن.

هونورين: أوه! أنا أرى بوضوح، كما في يومِ زواجي.

السيّدة لوبيك: حسناً افتحي الخزانة وناوليني صحناً، أيَّ صحن. إنْ كنت تنشّفين الصحون كما ينبغي، لماذا يوجد هذا البخار؟

هونورين: هناك رطوبة في خزانة الحائط.

السيّدة لوبيك: وهل توجد في الخزانة أصابع أيضاً تتجوّل فوق الصحون؟ عايني هذا الأثر.

هونورين: أين؟ من فضلك يا سيّدتي، لا أرى شيئاً.

السيّدة لوبيك: هذا ما ألومك عليه يا هونورين. اسمعيني. أنا لا أقول إنّك تتهاونين، لو قصدتُ ذلك لكنتُ مخطئة: لا أعرف أيّة امرأة أخرى في البلد يمكن أن تعادلك في الحيويّة؛ كلّ ما أقوله هو أنّك تهرمين. أنا أيضاً، أهرم؛ جميعنا نهرم، ويأتي يوم لا تكفي فيه العزيمة وحدها. أراهن أنك تحسّين أحياناً بما يشبه غلالة على عينيك. وتظلُّ تلك الغلالة مهما فركْتِ عينيكِ.

هونورين: أنا، مهما حمْلقتُ، لا تتشوّش الرؤية عندي كما يحدث عندما أضع رأسي في سطل ماء.

السيّدة لوبيك: بلى، بلى، يا هونورين، يمكنك تصديقي. بالأمس فقط قدّمتِ للسيّد لوبيك كوباً قذرة. لم أقل شيئاً حينها خشية إيلامك بالتسبّب في مشكلة. كذلك السيّد لوبيك لم يقل شيئاً. هو لا يقول شيئاً دائماً، لكن لا شيء يفوته. يُخيَّل للمرء أنه لامبالٍ: خطأ! إنه يراقب، وكلّ شيء يرتسم في ذهنه. كلّ ما فعله ببساطة هو أنّه دفع كوبك بإصبعه، وكان من الشجاعة بحيث تناول الغداء من دون أن يشرب ماء. أمّا أنا فقد بقيتُ أتألّم من أجلك، ومن أجله.

هونورين: إنّه لأمر مزعج أن يشعر السيّد لوبيك بالحرج من خادمته! كان عليه أن يتكلم لأغيِّر له الكوب.

السيّدة لوبيك: هذا ممكن يا هونورين، لكنْ حتّى مَن هم أخبث منك بكثير لن يقدروا على جعل السيّد لوبيك يتكلّم عندما يُصِرّ على السكوت. أنا شخصيّاً تخلّيْتُ عن ذلك. ثمّ إنّ السؤال ليس هنا. ألخّص لك الأمر: بصرُك يضعف قليلاً كلّ يوم. والوضع أقلّ سوءاً عندما يتعلّق بأعمال كبيرة مثل غسل الصحون، أمّا الأعمال الدقيقة فلم تعودي قادرة عليها. ورغم زيادة النفقات، أنا مستعدّة للبحث عمّن يساعدك...

هونورين: لا يمكنني الانسجام مع أيّة امرأة أخرى يا سيّدة لوبيك، ستكون مصدرَ عرقلةٍ لي.

السيّدة لوبيك: كنت سأقول ذلك. إذن، ماذا؟ بصراحة، بمَ تنصحينني؟

هونورين: سوف تسير الأمور على ما يُرام حتّى موتي.

السيّدة لوبيك: موتك؟ هل تفكّرين فيه يا هونورين؟ أنتِ قادرة على البقاء بعدَ موتنا كلِّنا، وهذا ما أتمنّاه، هل تفترضين أن عليّ الاعتماد على موتك؟

هونورين: لا أعتقد أنك تنوين طردي لمجرّد سوء استخدام خرقة تنشيف. وقبل ذلك لن أغادر بيتكم إلاّ إذا طردتموني. وإذا فعلتم هل يبقى أمامي سوى الهلاك؟

السيّدة لوبيك: ومن الذي تحدّث عن طردك يا هونورين؟ ها قد صار لونك أحمر. كنّا نتحادث بودّ وإذا بك تغضبين وتنطقين بحماقات أكبر من الكنيسة.

هونورين: أجل! وما أدراني أنا؟

السيّدة لوبيك: وأنا؟ لا أنت ولا أنا مسؤولتان عن فقدانك البصر. آمل أن يُشفيك الطبيب. وهذا يحْدُث. وفي انتظار ذلك، من منّا الأكثر انزعاجاً؟ أنت لا تصدّقين إصابة عينيك بالمرض، أمّا خدماتك فتؤكّد ذلك. وأنا أُعلمك من باب الإحسان، ومن أجل تفادي بعض الحوادث، وكذلك لأنّ لي الحقَّ، كما يبدو لي، في تقديم ملاحظة بأسلوب رقيق.

هونورين: كما تشائين، خذي راحتك يا سيّدتي لوبيك. في لحظة رأيتُني مطرودة في الشارع؛ لكنّك الآن تطمئنينني. ومن جانبي سوف أراقب صحوني بعناية، أضمن لك ذلك.

السيّدة لوبيك: وهل طلبتُ منك غير ذلك؟ أنا أفضل ممّا يُشاعُ عنّي يا هونورين، ولن أحرم نفسي من خدماتك إلاّ إذا أكرهْتِني على ذلك.

هونورين: في هذه الحال لا حاجة إلى الكلام يا سيّدة لوبيك. أنا الآن أعتبر نفسي نافعة، ومن الظلم طردي. لكنّني في اليوم الذي أشعر فيه أنني صرت عبئاً ولم أعد قادرة حتّى على تسخين قِدْر ماء فوق النار، سوف أغادر فوراً، ومن تلقاء نفسي، من دون أن أُجْبَرَ على ذلك.

السيّدة لوبيك: ومن دون أن تنسي، يا هونورين، أنّك سوف تجدين دائماً بقيّة صحن حساء في هذا البيت.

هونورين: كلاّ، يا سيّدة لوبيك، لا أريد الحساء؛ بل بعض الخبز فقط. فمنذ أن كفّت الأمّ مايتيه عن الأكل مكتفيةً بالخبز، لم تعد مقبلة على الموت.

السيّدة لوبيك: وهل تعلمين أنّ عمرها مائة عام على الأقل؟ وهل تعرفين شيئاً آخر أيضاً، يا هونورين؟ الشحّاذون أسعد حالاً منّا، أؤكّد لك ذلك.

هونورين: بما أنّك تؤكدين ذلك، فأنا أؤكّده معك، يا سيّدة لوبيك.

القِدْر

قليلة هي المناسبات التي يستطيع فيها أصهب أن يكون نافعاً لعائلته، فهو يلْبد في زاوية وينتظر الفرصة. يستطيع الإنصات من دون رأي مسبق، وحالما تحين الفرصة يخرج من الظلّ ويتصرّف مثل شخص متّزن ومحافظ على رجاحة عقله وسط الأشخاص المنفعلين، فيأخذ بزمام المبادرة.

ولقد توقّع أن السيّدة لوبيك محتاجة إلى مساعدة ذكيّة وناجعة. طبعاً هي لن تعترف بذلك من باب المحافظة على كبريائها. لكنّ الموافقة تكون ضمنيّة، وعلى أصهب أن يبادر من دون انتظار تشجيع، أو ارتجاء مكافأة.

وها قد اتّخذ قراره.

هناك قِدْر تظلّ معلّقةً إلى المدفأة من الصباح إلى المساء. وهي كثيراً ما تُفرغ وتُمْلأُ من جديد لتسخن فوق نار متأجّجة، خصوصاً في فصل الشتاء عندما تزداد الحاجة إلى الماء السّاخن.

أمّا في الصيف فلا يُسْتخدم ماؤها إلاّ بعد كلّ وجبة، وذلك لغسل الأواني، فيما تظلّ تغلي بلا طائل بقيّة الوقت، مع صفير خافت متواصل، بينما يصعد الدخان، تحت بطنها المتشقّق، من قطعتيْ حطب شبه مطفأتيْن.

أحياناً لا تسمع هونورين الصّفير فتنحني وتتنصّت.

ـ لقد تبخّر كلّ شيء، تقول.

فتصبّ سطل ماء في القِدْر، وتقرّب بين قطعتيْ الحطب، وتحرّك الرّماد. وسرعان ما يعود نشيش القدر الخافت، فتطمئنّ هونورين وتذهب لقضاء شأن آخر من شؤونها.

ولو سألها سائل:

- يا هونورين، لماذا تسخّنين ماءً لن تحتاجي إليه؟ أبعدي القِدر إذن وأطفئي النار. أنت تحرقين الحطب وكأنه لا يكلّف شيئاً. ما أكثر الفقراء الذين يتجمّدون عندما يحلّ البرد! مع أنّ المعروف عنك أنك امرأة مقتصدة.

نعم، لو قيل لها ذلك، لاكتفتْ بهزّ رأسها.

فهي اعتادت دائماً رؤية قدْر تتدلّى في معْلاق أدوات الطّبخ.

سمعتْ دوماً صوت الماء يغلي، وينبغي دائماً أن تعيد ملْء القدْر عندما تفرغ، سواء لدى هطول المطر أو هبوب الرّيح أو لفح الشمس.

والآن لم تعد تحتاج إلى لمس القِدْر أو رؤيتها؛ لقد صارت تدركها غيْباً. يكفي أن تسمعها، وإذا سكتتْ صبّتْ هي فيها سطلَ ماءٍ بدقّة معتادة لا تخطئ معها أبداً.

وها هي ذي تخطئ اليوم وتفقد تلك الدقّة لأوّل مرّة.

انسكب الماء كلّه على النار، فهبّت سحابة رماد مثل بهيمة مغتاظة تمّ إزعاجها، ووثبتْ على هونورين، وخنقتها وأحرقتها.

أطلقت صرخة وعطست وشرعت تبصق متقهقرةً إلى الخلف.

- اللّعنة! قالت، ظننتُ أنّ الشيطان خرج من باطن الأرض.

وبعينيْن ملتصقتين ومكتويتيْن راحت تتلمّس بيديها المسودّتينِ عبرَ ظلامِ المدفأة.

- آه! فهمتُ، قالتْ، مندهشةً. لم تعد القِدْر في موضعها.

- كلاّ، قالت مرّة أخرى، لم أفهم. القِدْر كانت موجودة منذ قليل، هذا مؤكّد، لأنها كانت تصفّر مثل زمّارة قصب.



ربّما رفعها أحدهم عندما كانت هونورين تدير ظهرها كي تنفض فوطة ملأى قشوراً عبرَ النافذة.

لكن من الذي فعل ذلك؟

بدت السيّدة لوبيك صارمةً ومحافظةً على هدوئها وهي تقف على الممسحة الموجودة عند عتبة غرفة النوم.

- يا له من ضجيج، يا هونورين!

- الضّجيج، الضَجيج! صاحت هونورين. يا له من ضجيجٍ شؤم! كدت أُشْوى حيَّةً. عايني قبقابي، وتنّورتي الداخليّة ويديَّ. الطين يغطي قميصي وقطع الفحم تملأ جيوبي.

السيّدة لوبيك: أتطلّع إلى هذه البِرْكة التي ترشح من المدفأة، يا هونورين. سوف تزيد نظافة المكان!

هونورين: لِمَ تُسْرَقُ مني القِدْر من دون إعلامي؟ ربّما كنتِ، أنت تحديداً، من أخذَها؟

السيّدة لوبيك: هذه القِدْر مِلْك الجميع هنا، يا هونورين. فهل ينبغي، على سبيل المثال، أن أعمد، أنا، أو السيّد لوبيك أو أحد أبنائي، إلى أخذِ ترخيص منك قبل استخدامها؟

هونورين: الغضب يجعلني أنطق بحماقات.

السيّدة لوبيك: ضدّنا أم ضدّك يا هونورين الطيّبة؟ نعمْ ضدّ من؟ أتمنّى معرفة ذلك من دون أن أبدوَ متطفّلة. أنت تثيرين سخطي. تتذرّعين باختفاء القِدْر وتلقين بسطل ماء على النار ببسالة، وبدلاً من الاعتراف بعملك الأخرق، تواصلين العناد وتهاجمين الآخرين، وتلومينني أنا شخصيّاً. حقيقةً، أجدها مزحة ثقيلة!

هونورين: يا صغيري أصهب، أتعرف أين هي قِدْري؟

السيّدة لوبيك: كيف سيعرف ذلك، وهو طفل صغير وغير مسؤول؟ إنسي موضوع قِدْرك. تذكّري بالأحرى ما قلتِ بالأمس: «في اليوم الذي أشعر فيه أنّني صرت عبئاً ولم أعد قادرة حتّى على تسخين قِدْر ماء فوق النار، سوف أغادر فوراً، ومن تلقاء نفسي، من دون أن أُجْبَرَ على ذلك.» نعم لقد لاحظتُ أنّ عينيك مريضتان، لكنّني لم أكن أظنّ أن حالتك ميؤوسٌ منها. لن أضيف شيئاً، يا هونورين؛ ضعي نفسك محلّي. أنتِ على علْم بالوضع مثلي؛ احكمي واستنتجي. أوه لا تنزعجي، ابكي. هناك ما يستحقّ البكاء.

تكَتُّم

- أمّي! هونورين! ...

ماذا يريد أصهب أيضاً؟ سيُفْسِد كلَّ شيء. لكنّه، من حسن الحظّ، توقّف عن الكلام رأساً، أمام نظرة السيّدة لوبيك الباردة.

وما جدوى القول لهونورين: أنا الذي فعلتُ ذلك، يا هونورين!

لا شيء يمكنه إنقاذ العجوز. لم تعد قادرة على الرؤية، لم تعد قادرة. هذه مشكلتها. كان، لا بدّ لها أن تتنازل وتستسلم، آجلاً أم عاجلاً. ومن شأن اعتراف أصهب أن يزيدها ألماً. فلْتَرْحلْ من دون التشكّك في أصهب، معتقدةً أنّ ذلك حدثَ بفعل سوء طالع محتوم.



ولِمَ القول للسيّدة لوبيك: أمّي، أنا الذي فعلتُ ذلك!

ما جدوى التبجُّح بفعل جدير بالتقدير، واستجداء ابتسامة شرف؟ زدْ على ذلك أنّه قد يجازف بخطر ما، لأنه يعرف أن السيّدة لوبيك قادرة على فضحه أمام الناس، عليه أن يهتمَّ بشؤونه الشخصيّة إذن، وأفضل من ذلك، عليه أن يتظاهر بمساعدة أمّه وهونورين في البحث عن القِدْر.

وعندما اجتمعوا ثلاثتهم للبحث عنها، كان هو أكثرهم حماسةً.

فقدت السيّدة لوبيك الاهتمام بالموضوع وكانت أولى المتخلّين عن البحث.

استسلمت هونورين وابتعدت مهمْهمةً، أمّا أصهب الذي كاد تأنيبُ ضميرٍ أن يودي به، فسرعان ما عاد للانكماش على نفسه، داخل غمْده، مثل أداةٍ للقضاء لم يعدْ يحتاج إليها أحد.

أغاتا

أغاتا، حفيدة هونورين، هي التي حلّتْ محلّها.

ظلّ أصهب يراقب بفضول هذه القادمة الجديدة التي ستحوّل، لبضعة أيّام، انتباه آل لوبيك منه إليها.

- اقرعي الباب قبل الدخول، يا أغاتا، قالت السيّدة لوبيك، وهذا لا يعني أنه يتوجّب عليك كسر الأبواب بضرباتٍ كأنّها رفسات حصان.

- هاهي ذي البداية، قال أصهب محدّثاً نفسه، كنت أنتظرها وقت الغداء.

اجتمعت العائلة لتناول وجبة الغداء في المطبخ الكبير. كانت أغاتا تضع منديلاً على ذراعها وهي متأهّبة للركض من الفرن إلى الخزانة الحائطية، ومنها إلى المائدة، لأنها لا تعرف البتّة كيف تمشي باتّزان، لذلك تفضّل اللهاث، والدم يكاد ينفر من وجنتيها.

وهي تتكلّم بسرعة مفرطة أيضاً، وتضحك بصوت عالٍ، وتبالغ في تطلُّعِها إلى إجادة ما تقوم به.



جلس السيّد لوبيك أوّلاً، فتح منديله، دفع بصحنه قرب الطبق الذي رآه أمامه، تناول بعض اللّحم والمرق، وقرّب الصحن نحوه. تناول مشروبه بنفسه، وشرع يأكل بقناعة، منحنيَ الظهر، مُنسدل الجفنين، وبلا مبالاة، كعادته كلّ يوم.

عندما يتمّ تغيير الطبق ينحني على مقعده ويحرّك فخذه.

قدّمت السيّدة لوبيك الأكل لأبنائها بنفسها؛ الأخ الأكبر فيليكس أوّلاً، لأن معدته تصرخ جوعاً، ثمّ الأخت إرنستين، بصفتها أكبر من أصهب الذي يوجد في طرف المائدة.

وهو لا يعيد الطلب والاستزادة أبداً، كما لو كان ذلك ممنوعاً منعاً قاطعاً. حصّة واحدة يجب أن تكون كافية. وإذا عُرض عليه شيء يقبله، ومن دون أن يشرب ينتفخ بالأرز الذي لا يحبّه حتّى يُساير السيّدة لوبيك الوحيدة في العائلة التي تحبّه كثيراً.

أمّا الأخ الأكبر فيليكس والأخت إرنستين فهما أكثر استقلاليّة، وإذا رغبَا في حصّة ثانية من الأكل فإنهما يتّبعان طريقة السيّد لوبيك في دفع صحنيْهما نحو الطبق.

لكن لا أحد يتكلّم.

ـ ماذا أصابهم يا تُرى؟ تتساءل أغاتا.



لم يُصبْهم شيء. هم هكذا، هذا كلّ شيء.

لا تتمكّن من منع نفسها عن التثاؤب فاتحةً ذراعيها أمام هذا وذاك. السيّد لوبيك يأكل ببطء كما لو كان يمضغ زجاجاً مسحوقاً.

ورغم أن السيّدة لوبيك ثرثارة من الدرجة الأولى، بين الوجبات، فهي عندما تكون جالسة إلى مائدة الطعام لا تأمر إلاّ بالإشارات وإيماءات الرأس.

الأخت إرنستين ترفع عينيها نحو السقف.

الأخ الأكبر فيليكس ينحت لبّ الخبز، أمّا أصهب الذي لم يبق له شيء من طبخة اللحم، فهو مهتمّ بعدم تنظيف صحنه مبكّراً، كدليل شراهة، أو متأخّراً، كدليل كسل. ولتحقيق هذا الهدف فهو يخوض حسابات معقّدة.

فجأةً ذهب السيّد لوبيك يملأ دورق ماء.

- كان يمكنني أن أذهب أنا، قالت أغاتا.

أو بالأحرى هي لم تقل ذلك، بل فكّرتْ فيه فقط. وبما أنها أصيبت بمرض الجميع، فقد صار لسانها ثقيلاً، ولم تعد تجرؤ على الكلام، لكنّ ذلك يجعلها تشعر بالتقصير فتضاعف اهتمامها.

لم يعد هناك خبز تقريباً لدى السيّد لوبيك. وفي هذه المرّة لن تتخلّف أغاتا في المبادرة. ظلت تراقبه إلى حدّ نسيان الآخرين، ما جعل السيّدة لوبيك تسألها بصرامة: «أغاتا، هل نبتِّ في الأرض؟»، معيدةً إيّاها لمراعاة النظام.

- حاضر يا سيّدتي، أجابت أغاتا.

وقسّمت نفسها على الجميع من دون التخلّي عن مراقبة السيّد لوبيك. كانت ترغب في كسب ودّه بالمبادرة إلى خدمته وإبراز حضورها.

حانت الفرصة.

ما إن التهم السيّد لوبيك آخر لقمة خبز حتّى هُرِعتْ إلى خزانة الحائط وأتتْ بخبزة مستديرة كاملة تزن كيلوغرامين ونصف الكيلوغرام، وقدّمتْها له بطيبة خاطر، شاعرةً بالسعادة لأنها توقّعت رغبات السيّد.

والحال أنّ السيّد لوبيك طوى منديله وغادر المائدة، ثمّ وضع قبّعته وقصد الحديقة ليدخّن سيجارة.

وهو عندما ينهي أكله لا يعود إلى المائدة.

بدت أغاتا، متسمِّرةً، حمقاء، ماسكةً عند بطنها بخبزة مستديرة تزن كيلوغرامين ونصف الكيلوغرام، وكأنّها دعاية من الشمع لشركة تصنع أدوات النجاة.



البرنامج

- هذا يصيب بالخرس، قال أصهب، عندما ظلّ هو وأغاتا وحيديْن في المطبخ. لا تيأسي، سوف ترين أكثر من ذلك. لكن، إلى أين أنت ذاهبة بهذه القناني؟

- إلى القبو، سيّدي أصهب.

أصهب: عفواً، أنا الذي أذهب إلى القبو. منذ تمكّنت من نزول الدرج السيئ الذي يؤدي بالنساء إلى الانزلاق وتعرُّضهنّ للخطر، صرتُ الرّجلَ المؤتمن. وأنا قادر على التمييز بين الختم الأحمر والختم الأزرق.



«أبيع البراميل القديمة لصالحي، وكذلك جلود الأرانب البرّية التي أسلّم ثمنها إلى أمّي.

«لنتّفقْ، من فضلك، حتّى لا يزعج أحدنا الآخر في أداء مهمّته.

«صباحاً، أفتح الباب للكلب وأقدّم له الأكل. مساء، أصفّر له كي يأتي للنوم. وعندما يتأخّر في الشوارع أنتظره.

«بالإضافة إلى ذلك، وعدتْني أمّي بإغلاق باب القنّ يوميّاً.

«أقتلع الأعشاب التي تتطلّب دراية، وأعيد بقدميَّ سدّ الثقوب التي تخلّفها، لأوزّعها على الحيوانات.

«ومن باب التدرّب، أساعد أبي في نشْر الخشب.

«أُجْهز على الطرائد التي يأتي بها حيَّةً وأنت تتولّين نتف ريشها مع الأخت إرنستين.

«أشقّ بطن الأسماك وأُفرغ أحشاءها وأفرقع مثاناتها بكعب حذائي.

«وعلى سبيل المثال، فأنت التي تتولّين برْشَها ونزع حراشفها، واستخراج الماء من البئر.

«أساعد في حلّ خيوط الغزْل.

«أطحن البنّ.

«عندما تخلع السيّدة لوبيك حذاءها الوسخ أتولّى أنا نقله إلى الممرّ، لكنّ الأخت إرنستين لا تتخلّى لأحد عن حقّها في نقل الخُفّين اللذين طرّزتهما بنفسها. أتكفّل بالمشتريات المهمّة، وخصوصاً تلك التي تتطلّب قطع مسافات طويلة، وكذلك الصيدلية أو الطبيب.

«من جهتك، تتولّين جلب المؤونة البسيطة من القرية.

«لكنّه يتوجّب عليك الذّهاب إلى النّهر، لمدّة ساعتين أو ثلاث، يوميّاً ومهما كان الفصل، من أجل الغسيل. وهذا سيكون أقسى ما في عملك، يا بنيّتي المسكينة؛ ولا حيلة لي في الأمر. ومع ذلك سوف أحاول أحياناً، عندما يبقى لديّ وقت فارغ، أن أساعدك في نشر الغسيل على السياج.

«وما دمت أتذكّر: نصيحة. لا تنشري غسيلك أبداً على الأشجار المثمرة. فالسيّد لوبيك، من دون أن يوجّه لك ملاحظة، سوف يرمي به أرضاً بضربة خفيفة واحدة، بينما ترسلك السيّدة لوبيك لإعادة غسله كلّه حتّى وإن كانت هناك بقعة صغيرة ملوّثة فقط.

«أوصيك بالأحذية. ضعي الكثير من الشحم بأحذية الصيّد والقليل جدّاً من صبغة الأحذية (البويا) على الجزْمات. لأنها تُفسدها.

«لا تُجهدي نفسك كثيراً في إزالة الوحل من السراويل. فالسيّد لوبيك يؤكّد أن الطين يحفظها. وهو يمشي متوسّطاً الأراضي المحروثة من دون أن يُشمّر سرواله من الأسفل. أمّا أنا فأفعل ذلك عندما يصطحبني السيّد لوبيك وأحمل جراب الصّيد.

«- يا أصهب، يقول لي السيّد لوبيك آنذاك، لن تصير صيّاداً حقيقيّاً أبداً.

«والسيّدة لوبيك تقول لي:

«- سوف ترى ما سأفعل بأُذنيْك إذا لوّثْتَ نفسك.

«إنها مسألة ذوق.

«إجمالاً لن تكوني في وضع سيّئ جدّاً. فخلال عطلتي، سوف نتقاسم المهمّة، وسوف يخفّ عليك الحِمْل عندما نعود، أنا وأختي وأخي، إلى المدرسة الداخلية. وبهذا تتساوى الأمور.

«وفوق ذلك لن تجِدي أحداً في منتهى السوء. اسألي أصدقاءنا: سوف يُقسمون لك كلُّهم أنّ أختي إرنستين لها رقّة الملائكة، وأخي فيليكس ذو قلب ذهبيّ، والسيّد لوبيك ذو عقل راجح وحكم عادل، والسيّدة لوبيك طاهية ماهرة يندر لها مثيل. وربّما كنت الوحيد في العائلة الذي ستجدين طباعه صعبة. وفي الحقيقة أنا لا أختلف عن سواي. تكفي معرفة طريقة معاملتي. أمّا ما عدا ذلك فأنا أنصت إلى صوت العقل، وأصلح سلوكي؛ بلا تواضع مزيّف، إنّني أتحسّن، وإذا بذلتِ جهداً من جانبك فسوف نعيش في وئام.

«كلاّ، لا تناديني سيّدي منذ الآن، ناديني أصهب، مثل الجميع. وهذا أقلّ طولاً من السيّد لوبيك الابن. كلّ ما أطلبه من حضرتك هو ألاّ ترفعي الكلفة بيننا، على طريقة جدّتك هونورين التي كنتُ أكرهها، لأنّها تُغيظني دائماً».

الضّرير

دقّ الباب بطرف عصاه في احتشام.

السيّدة لوبيك: ماذا يريد أيضاً؟

السيّد لوبيك: ألا تعرفين؟ يريد فلوسه العشرة؛ هذا يومه. دعيه يدخل.

فتحت السيّدة لوبيك الباب عابسةً، وسحبت الضّرير من ذراعه، بغتةً، بسبب البرد.

- أُسْعِدْتم صباحاً يا كلّ الموجودين! قال الضّرير.

وتقدّم. عصاه تجري بخطى قصيرة على البلاط وكأنّها تريد صيد فئران، حتّى وجدت مقعداً. جلس الضّرير ومدّ يديه المرتعشتيْن من البرد نحو المدفأة.



تناول السيّد لوبيك قطعة نقديّة من فئة العشرة فلوس وقال:

- خذْ!

ولم يعد يكترث له؛ إذْ تابع قراءة جريدته.

ووجد أصهب ما يتسلّى به. كان مقرفصاً في زاويته ينظر إلى جزمة الضّرير يذوب عنها الثلج فتنضح ماءً، وبدأت ترتسم حولها بِرَك صغيرة.

انتبهت السيّدة لوبيك إلى ذلك.

- ناولْني جزمتك يا عجوز، قالت.

وضعت الجزمة تحت المدفأة، لكنْ بعد فوات الأوان؛ فقد خلّفت بركة مائية، وأحسّ الضّرير القلِق بالرطوبة في قدميه فصار يرفع الواحدة تلو الأخرى، ويُبْعد الثلج الممزوج بالوحل فينشره أبعد.

حكّ أصهب الأرض بظفره مشيراً إلى الماء القذر بالتقدّم نحوه محدّداً له شقوقاً عميقة.

- بما أنه حصل على فلوسه العشرة، قالت السيّدة لوبيك، دون خشية أن تُسْمع، ماذا يريد؟

غير أنّ الضّرير بدأ يخوض في السياسة، بخجل في البداية، ثمّ بثقة. وعندما تخونه الكلمات يحرّك عصاه، تحترق قبضته بماسورة المدفأة، فيسحبها بسرعة، متشكّكاً، لذلك يحرّك بياض عينيه الطافح بدموع لا تنضب.

أحياناً يقول السيّد لوبيك وهو يقلب أوراق الصحيفة:

- من دون شكّ، يا عمّ تيسبيه، من دون شك، لكن هل أنت متأكد من الأمر؟

- نعم أنا متأكد! يصرخ الضّرير. إنّه أمر جلل! اسمعني يا سيّدي لوبيك، ستعرف كيف أُصِبْت بالعمى.

- لن يغادر، قالت السيّد لوبيك.

وفعلاً، وجد الضّرير نفسه في وضع أفضل. روى تفاصيل الحادثة التي تعرّض لها، تمطّى فذاب كلّ ما على ثيابه. وكانت توجد قطع ثلجية داخل عروقه بدأت تذوب وتسيل. بدت ثيابه وأعضاؤه كأنها تنزّ زيتاً.

على الأرض توسّعت البركة، بلغت أصهب، وصلتْ.

إنّه هو الهدف.

قريباً سيتمكّن من اللّهو بها.



في تلك الأثناء بدأت السيّدة لوبيك مناورة حاذقة. فمرّةً تلامس الضّرير لمسات خفيفة، ومرةً تسدّد له ضربات بكوعها، وتدهس قدميه، وتجعله يتقهقر إلى الخلف، فيلبد بين المائدة والخزانة

حيث لا تصل الحرارة. يحتار الضّرير فيتلمّس ما حوله، ويحرّك يديه، وتتعربش أصابعه مثل حيوانات صغيرة. إنه يتوغّل في ليله الخاص. ومن جديد يتشكّل الجليد؛ وهاهو ذا يتجمّد .

وأنهى الضّرير حكايته بنبرة باكية.

- نعم، يا أصدقائي الطيّبين، قُضيَ الأمر، لم تعد لي عينان، لاشيء غير ظلمة فرن.

أفلتت منه عصاه. وهذا ما كانت تنتظره السيّدة لوبيك. أسرعت والتقطت العصا وسلّمتها للضرير- من دون أن تسلّمها له حقّاً.

ظلّ يعتقد أنه أمسك بها وهو لم يحصل عليها.

وبواسطة خدَع ماهرة، ظلّت تجعله يُغيّر مكانه، حتّى تمكّنت من تسليمه جزمته وتوجيهه نحو الباب.

ثمّ قرصتْه قرصة خفيفة كي تنتقم قليلاً؛ ودفعتْه نحو الشارع، تحت لحاف السماء الرماديّة التي كانت تتخلّص من ثلجها، والريح المزمجرة مثلَ كلب منسيّ في الخارج.

وقبل إعادة إغلاق الباب صرخت السيّدة لوبيك بالضّرير كما لو كان أصمَّ:

- إلى اللقاء؛ لا تُضِعْ قطعتك النقديّة؛ إلى الأحد القادم إذا تحسّن الطقس، وإذا بقيتَ في هذا العالم أيضاً. صحيح! أنت على حقّ، يا عمّ تيسييه العجوز، لا يمكننا معرفة من يحيا ومن يموت أبداً. لكلٍّ آلامُه والربّ للجميع!

رأس السنة

الثلج ينهمر. ولكي ينجح الاحتفال برأس السنة ينبغي أن ينهمر الثلج.

تركت السيّدة لوبيك باب الفِناء موصداً من باب الحذر. وها إنّ بعض الفتيان قد بدؤوا يرجّون المزلاج، ويركلون أسفل الباب، بطريقة محتشمة في البداية، ثمّ بعدوانية وبضربات الأحذية والقباقيب، لينسحبوا بعد فقدان الأمل، متقهقرين وعيونهم لا تزال على النافذة التي تراقبهم منها السيّدة لوبيك. وما لبث ضجيج خطاهم أن تلاشى في الثلج.

قفز أصهب من السرير، وذهب يغسل وجهه بلا صابون في حوض الحديقة المتجمّد. ويتوجّب عليه أن يهشّم الجليد، وهذا التمرين الأول ينشر في كامل جسمه دفئاً أسلم بكثير من دفء المدافئ. لكنه تظاهر ببلّ وجهه، ونظراً لمعاملته دائماً باعتباره قذراً حتّى وإن نظّف نفسه جيّداً، صار لا يُزيل إلاّ البارز من أوساخه.

لقد صار جاهزاً ونشطاً من أجل الاحتفال، فاتّخذ موضعه خلف أخيه الأكبر فيليكس الذي كان بدوره خلف أختهما إرنستين. دخل الثلاثة إلى المطبخ حيث اجتمع السيّد والسيّدة لوبيك من دون أن يظهر عليهما ذلك.

قبّلتْهما الأخت إرنستين وقالت:

- صباح الخير يا أبي، صباح الخير يا أمّي، أتمنّى لكما عاماً سعيداً وصحّة جيّدة، والجنّة بعد طول العمر.

وردّد الأخ الأكبر فيليكس الكلام نفسه، بسرعة، قافزاً إلى نهاية الجملة، وقبّلهما بدوره.

غير أن أصهب أخرج رسالة من قبّعته. يظهر على ظرفها المغلق: «إلى والديَّ العزيزيْن». ولم تكن الرسالة تحمل عنواناً. طار عصفور من النّوع النّادر متعدّد الألوان في زاوية من المطبخ.

قدّم أصهب رسالته إلى السيّدة لوبيك ففتحتها. ورود كثيرة متفتّحة تزيّن الورقة، ونقوش مخرّمة تحيط بها حيث تركتْ ريشة أصهب ثقوباً كثيرة في الورقة ملطِّخة الكلمات المجاورة لها.

السيّد لوبيك: وأنا، لا أحصل على شيء!

أصهب: هي لكما؛ وسوف تعيرك أمّي إيّاها.

السيّد لوبيك: هكذا إذن، أنت تحبّ أمّك أكثر منّي. فهل أنت متأكّد من الحصول على قطعة العشرة فلوس؟ تفقّد جيبك!

أصهب: اصْبرْ قليلاً، لقد انتهت أمّي من القراءة.

السيّدة لوبيك: أسلوبك جميل لكنّ خطّك في منتهى السوء حتّى أنني لا أتمكن من القراءة.

- تفضّلْ يا أبي، قال أصهب مستعجلاً، جاء دورك الآن.

وبينما كان أصهب يقف مستقيماً في انتظار الإجابة، قرأ السيّد لوبيك الرسالة، مرّة، ومرّتيْن، وفحصها مطوَّلاً وفق عادته، وقال: «آه! آه!»، ثمّ وضعها على المائدة.

لم تعد الرسالة تنفع في شيء بعد أن أحدثت أثرها الكامل. صارت ملك الجميع. كلّ واحد يستطيع رؤيتها ولمسها، وهكذا تناولتْها الأخت إرنستين ثمّ الأخ الأكبر فيليكس وبحثا فيها عن أخطاء إملائيّة. هنا، يبدو أنّ أصهب قد غيّر ريشته، فالقراءة صارت ممكنة. بعد ذلك أعادا إليه الرسالة.

قلبها وأعاد تقليبها، وابتسم بقبح، وبدا كأنّه يسأل:

- من منكم يريدها؟

وفي النهاية أعادها إلى قبّعته.

ثمّ وُزِّعتْ هدايا العيد. حصلت الأخت إرنستين على دمية في طولها، بل أطول منها، وحصل الأخ الأكبر فيليكس على علبة من جنود الرصاص المتأهّبين لشنّ الحرب.

- جهّزتُ لك مفاجأة، قالت السيّدة لوبيك مخاطبةً أصهب.

أصهب: آه، نعم!

السيّدة لوبيك: لِمَ هذه ال : آه، نعم! بما أنّك تعرفها، لا جدوى من إطلاعك عليها.

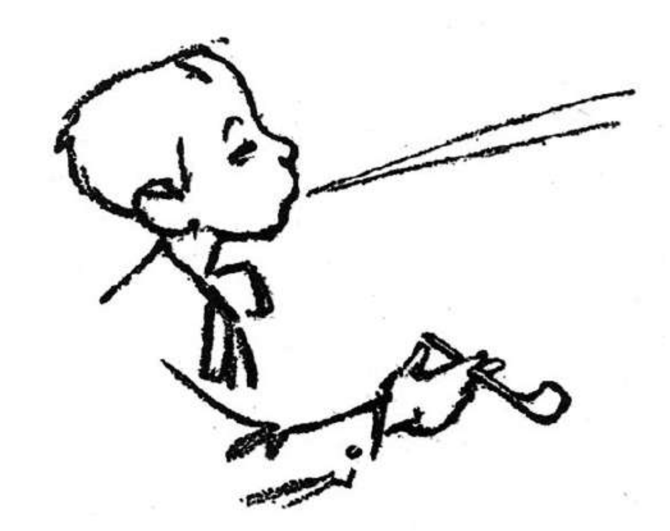
أصهب: فلأُحْرَمْ من عناية الربّ إنْ كنت أعرفها.

رفع يده في الهواء جادّاً وواثقاً من نفسه. ففتحت السيّدة لوبيك الخزانة. بدا أصهب يلهث. أدخلت ذراعها حتّى الكتف، وببطء شديد ومحاولة إخفاء، جلبت، في ورقة صفراء، غليوناً من السكّر الأحمر.

أشرق أصهب مبتهجاً بلا تردّد. وهو يعرف ما تبقّى عليه فعْلُه. يريد التّدخين بسرعة جنونيّة في حضور والديْه، أمام نظرات حاسدة (لكن لا يمكن الحصول على كلّ شيء!) من الأخ الأكبر فيليكس والأخت إرنستين. وضع غليون السكّر الأحمر بين إصبعيْن فقط، وقوّس ظهره، وأمال رأسه ناحية اليسار. كوّر فمه، وجعل خدّيْه يغوران في فكّيْه وبدأ يمصّ بقوة وصخب.

وبعد أن نفث سحابة دخان هائلة حتّى السماء:

- رائعة، قال، إنها تسحب جيّداً.



ذهاب وإياب

الابنان، السيّدان لوبيك، والآنسة لوبيك، يأتون لقضاء العطلة.

مع وثبات عربة الخيول، ومن أبعد نقطة يرى فيها والديه، تساءل أصهب:

- هل حان الوقت للركض نحوهم؟

لكنّه تردّد:

- ما زال الوقت مبكّراً، سوف أتعب، زدْ على ذلك أنه لا ينبغي المبالغة في أيّ شيء.

وزاد في التأجيل:

- سوف أبدأ بالركض انطلاقاً من هذه النّقطة... كلاّ، من هذه...

وشرع يطرح أسئلة على نفسه:

- متى ينبغي أن أخلع قبّعتي؟ من الذي سأقبّله أوّلاً؟

لكنّ الأخ الأكبر فيليكس والأخت إرنستين سبقاه وشرعا في تبادل الملاطفات العائلية. وعندما وصل أصهب كان كلُّ ذلك قد تمَّ تقريباً.

- أمازلتَ تنادي السيّد لوبيك «بابا» وأنت في هذا العمر؟ قالت السيّدة لوبيك، نادِهِ: «يا والدي» وصافحْه؛ هذا أكثر رجولة.

بعد ذلك قبّلتْه على جبينه، مرّةً واحدة، حتّى لا تثير الغيرة.

كان أصهب فرحاً بوجوده في فترة عطلة، إلى درجة البكاء. وهذا ما يحدث معه غالباً؛ نعم، غالباً ما يعبّر عن مشاعره بالمقلوب.

يوم العودة المدرسيّة (تحدّدت العودة صباح يوم الإثنين، 2 تشرين الأول/ أكتوبر؛ وتكون البداية بقدّاس الرّوح القُدس) ومن أبعد مسافة سمعت منها جلاجل العربة، انطلقت السيّدة لوبيك نحو ابنها وابنتها، وعانقتهما معاً. لم يكن أصهب موجوداً في الداخل. كان ينتظر دوره بفارغ صبر وقد سبقتْه يداه إلى سيور العربة، وكلمات الوداع جاهزة لديه، مع درجة من الحزن جعلتْه يترنّم رغماً عنه.



- إلى اللقاء يا والدتي، قال بنبرة وقورة.

- عجباً، قالت السيّدة لوبيك، من تحسب نفسك يا «بيرو»؟ هل تصعب عليك مناداتي بـ «ماما» مثل الجميع؟ يا لها من بدعة! ما زال غرّاً ملوّث الأنف ويريد التميُّز!

مع ذلك قبّلتْه على جبينه، مرّةً واحدة، حتّى لا تثير الغيرة.

ماسِكُ الرّيشة

يُطبّق معهد سان-مارك الذي ألْحَقَ به السيّد لوبيك ابنيْه الأخ الأكبر فيليكس وأصهب، نظامَ الدروس المعتمد في المدارس الثانويّة. يقوم التلاميذ بالنّزهة نفسها أربع مرّات يوميّاً. وهي ممتعة جدّاً من نهاية الرّبيع إلى الصّيف، وعندما تُمْطر، لفترة قصيرة جدّاً، ينتعش التلاميذ أكثر مما يتبلّلون، ويكتسبون عافيةً طيلة العام.

وعندما كانوا عائدين من المعهد هذا الصّباح يجرجرون أقدامهم مثل قطيع غنم، سمع أصهب وهو يسير مطأطئ الرأس، أحدهم يقول:



- أُنْظُرْ يا أصهب، أبوك هناك!

يحبّ السيّد لوبيك مفاجأة ابنيه بتلك الطريقة. يصل من دون أن يكاتبهما، ويُشاهَد فجأةً، منتصباً على الرصيف المقابل، في زاوية الشارع، ويداه خلف ظهره، وفي فمه سيجارة.

خرج أصهب والأخ الأكبر فيليكس من الصفوف وركضا نحو والدهما.

- صحيح! قال أصهب، حتّى لو كنت أفكّر في شخص ما، لم أكن لأفكّر فيك أنت.

- لا تفكّر فيَّ إلاّ عندما تراني، قال السيّد لوبيك.

كان أصهب يرغب في الإجابة بمودّة. لكنه لم يجد شيئاً بسبب انشغاله. وقف على أطراف أصابعه وأجهد نفسه لتقبيل والده. في مرّة أولى تمكّن من بلوغ لحيته بطرف شفتيْه. غير أن السيّد لوبيك، رفع رأسه بطريقة آليّة كما لو كان يتهرّب. ثمّ انحنى، وتراجع إلى الخلف مجدَّداً، وبذلك لم يتمكّن أصهب، الباحث عن خدّه، من بلوغه. ولم يلامس سوى الأنف. فقبّل الفراغ. ولم يُلحّ أكثر بعد أن تملّكه الارتباك فصار يحاول فهم هذا الاستقبال الغريب.

- ألم يعد أبي يُحبّني؟ حدّث نفسه. لقد رأيته يُقبّل أخي الأكبر فيليكس. كان يتلافاني من دون أن يتركني. لماذا يتحاشاني؟ هل يرغب في إثارة غيرتي؟ كثيراً ما لاحظت هذا الأمر بانتظام. عندما أبتعد عن والديَّ ثلاثة أشهر تزداد رغبتي في رؤيتهما، وأجهّز نفسي كي أثب إلى عنقيْهما مثل جرو. ونلتهم بعضنا البعضَ بالتقبيل والمداعبة. لكنْ ها إنّهما يجمّدانني.

كان مستغرقاً في أفكاره الحزينة فلا يتمكّن من الإجابة بطريقة جيّدة عن أسئلة السيّد لوبيك الذي سأله إن كان قد تحسّن قليلاً في دراسة اللغة اليونانيّة.

أصهب: حَسْب... إنّ الترجمة من اليونانيّة تسير أفضل من النّقل إليها، إذْ يمكن توقّع المعنى والتنبّؤ به في الحالة الأولى.

السيّد لوبيك: والألمانيّة؟

أصهب: صعبة جدّاً في النطق يا أبي.

السيّد لوبيك: ما أغباك! كيف ستتمكّن من محاربة البروسيّين الألمان، عند اندلاع الحرب، من دون الإلمام بلغتهم الحيّة؟

أصهب: آه! من الآن وحتى اندلاع الحرب سوف أجتهد أكثر. أنت تهدّدني بالحرب دائماً. أعتقد أنها سوف تنتظر، ولن تندلع إلاّ بعد أن أُكمل دراستي.

السيّد لوبيك: ما المرتبة التي حزْتها في آخر امتحان؟ آمل ألاّ تكون في آخِر الصفّ.

أصهب: ينبغي أن يكون في الآخِر أحدٌ!

السيّد لوبيك: يا أحمق! كنت أودّ دعوتك للغداء. واليوم ليس يوم أحد! لا أريد التشويش عليكما في الدروس خلال الأسبوع.

أصهب: شخصيّاً ليس لديّ شيء مهمّ يتوجّب عليَّ القيام به؛ وأنت يا فيليكس؟

الأخ الأكبر فيليكس: نسي المعلّم هذا الصباح أن يحدّد لنا فرضاً.

السيّد لوبيك: هكذا ستتفرّغ لدرسك.

الأخ الأكبر فيليكس: آه! حفظت درسي جيّداً، يا أبي، وهو درس الأمس نفسه.

السيّد لوبيك: مع ذلك أفضّل أن تعودا. سأحاول البقاء حتّى يوم الأحد لنلتقي.

لم يُؤدِّ ما قام به الأخ الأكبر فيليكس من مطّ شفتيه، ولا صمت أصهب المغتمّ، إلى تأخير لحظة الوداع، وحان وقت الافتراق.



وكان أصهب ينتظر ذلك بقلق.

- سأرى إن كان بإمكاني النجاح في المحاولة هذه المرّة؛ حدّث نفسه، وهل سيقبل أبي أن أقبّله أم لا.

واقترب مصمّماً، ممعن النظر، مرفوع الفم.

غير أن السيّد لوبيك أبعده بحركة دفاعيّة من يده وقال له:

- سينتهي بك الأمر إلى فقء عينيَّ بماسكِ ريشة الكتابة هذا الذي تضعه خلف أذنك. ألا تستطيع وضعه في مكان آخر عندما تُقبّلني؟ أرجو أن تلاحظ كيف أنني أُبعد سيجارتي عندما أسلّم.

أصهب: أوه! يا أبي الحبيب، أطلب منك العفو. هذا صحيح، قد تحدث كارثة بسببي، ذات يوم. لقد نُبِّهْتُ إلى ذلك مراراً، لكنّ ريشتي تثبت جيّداً في صيوان أُذْني حتّى صرت أتركها طيلة الوقت وأنساها. كان عليّ أن أُبعد ماسكَ الريشة على الأقل! آه! يا أبي الحبيب، أنا مسرور بمعرفة أنّ ماسكَ ريشتي كان يُخيفك.

السيّد لوبيك: يا أبله! تضحك لأنك كدتَ تعوّرني.

أصهب: كلاّ، يا أبي الحبيب، أضحك لسبب آخر: فكرة بلهاء من بنات أفكاري تركتُها تسكن دماغي.

الخدّان الأحمران

1

غادرَ السيّد مدير معهد سان-مارك مهجع التلاميذ بعد أن أنهى دورته التفقّدية المعتادة. اندسّ كلّ تلميذ في ملاءاته، كما لو كان يدخل في غِمْدِه، وانكمش حتّى لا يتعرّى. تأكّد موجِّه التّلامذة، واسمُه «فيولونْ»، بحركة دائريّة من رأسه، أنّ الجميع قد ناموا، ثمّ انتصب على أصابع قدميْه ليتمكّن من خفض إنارة الغاز بهدوء. وسرعان ما بدأت الثرثرة بين الجيران. وصارت الوشوشات تتقاطع من سرير إلى سرير، ويتصاعد من الشفاه المتحرّكة في المهجع همسٌ مُبهمٌ، يتّضح منه، بين الفينة والفينة، صفيرٌ قصير لحرفٍ صائت.

ضجّة مخنوقة، مستمرّة، مزعجة في نهاية المطاف، وكأن كلَّ هذا الصّريف غير المرئيّ والمهتاج هو لفئران منكبّة على قضم الصمت.

انتعلَ الموجِّه فيولون خفّين، وطاف بعض الوقت بين الأسرّة، مدغدغاً قدمَ تلميذ هنا، أو ساحباً شُرّابة طاقية تلميذ آخر هناك، ثمّ توقّف قرب مارسو الذي يقدّم معه كلّ مساء أفضلَ مثالٍ للمحادثات الطويلة والممدّدة إلى هزيع متأخّر من اللّيل. غالباً ما يكون التلاميذ قد أنهوا محادثاتهم وقد «خنقوها» شيئاً فشيئاً، كما لو كانوا قد سحبوا أغطيتهم قليلاً قليلاً على أفواههم وناموا، بينما يظلّ الموجِّه منحنياً على سرير مارْسو، وكوعاه مستندان بقوّة إلى الحديد، غير عابئ بخَدر ساعديْه والتنمّل السّاري حتّى أنامله.

كان يتسلّى بحكاياته الطفوليّة، ويتركه مستيقظاً بسرده عليه اعترافات حميمة وحكايات عاطفيّة، وما لبث أن تعلّق به لنعومةٍ وشفافيّةٍ في حمرة وجهه الذي يبدو كأنّه مُضاء من الداخل. لم يعد وجهاً بل هو لُبٌّ تشتبك خلفه، مع أدنى تبدّل مُناخيّ، تلك الأوردة الصغيرة بطريقة مرئيّة، مثل خطوط لخارطة جغرافية تحت ورقٍ لِنسخ الرسوم. زدْ على ذلك أنّ لمارسو طريقةً فاتنة في الاحمرار فجأةً ومن دون معرفة السّبب، ما يجعله محبوباً مثل البنات. أحياناً يضغط زميلٌ بطرف إصبعه على أحد خدّيْه ويجذب بعنف، تاركاً بقعةً بيضاء سرعان ما يغطّيها لون أحمر جميل ينتشر بسرعة، ويتدرّج اللّون بلُوَيْنات متنوّعة من أرنبة الأنف الورديّة إلى الأذنين اللّيلكيّتيْن. ويستطيع كلّ واحد أن يُجرّب بطريقته الخاصة، لأنّ مارسو يستجيب للتجارب بلُطف. ومن الألقاب التي أُطلقتْ عليه: سِراج الليل، الفانوس، الخدّ الأحمر. وهذه المَلَكَة التي تجعله يُضيء وفقَ المُراد أوجدت له الكثير من الحاسدين.

وأكثر مَن يغار منه هو صاحب السرير المجاور: أصهب. ذلك أنّ « بيبرو» (الاسم الحقيقيّ للفتى أصهب) لمفاويّ نحيل وذو وجه طحينيّ، ومهما آلَم أصهب نفسَه من شدّةِ قرصِ جلدِه الفقير الدّم لا ينجح في تحقيق الكثير، وقد لا يتجاوز ذلك نقطة ذات لون أصهب مشكوك فيه. لذلك لن يتورّع عن استخدام أظافره لتخطيط خدَّيْ مارسو المورّديْن، بنقمة وعنف، ليقشّرهما مثل برتقالتيْن.

أُثيرَ فضولُه بشدّة منذ فترة طويلة، لذلك قرّر التنصّت تلك الليلة، منذ وصول فيولون، متشكّكاً وربّما كان محقّاً، وراغباً في معرفة حقيقة السلوك المتكتّم لموجِّه التلامذة. وهكذا استخدم مهارة الجاسوس الصغير، وتظاهر بالشخير المضحك، وتقلّب في الفراش بتصنّع، مع الاعتناء بأداء استدارة كاملة، وإطلاق صرخة حادّة كما لو كان يرى كابوساً، ما أدّى إلى إيقاظ المهجع في حالة خوفٍ وجعلَ كلّ الملاءات في حركة تموّج قويّة؛ بعد ذلك، وما إن ابتعد فيولون، حتّى قال مخاطباً مارسو وصدره خارج الفراش وأنفاسه تتّقد:

ـ أتظنّ أنني لم أشاهدكما؟ قلْ لي إنّه لم يُقبّلْك!

انتصب مارسو ممدودَ العنق مثل ذكر إوزّ أبيض تمّ إزعاجه، وقبضتاه مشدودتان على حافة السرير. لكنّه في هذه المرّة سمع جواباً:

ـ حسناً، ثمّ ماذا؟

اندفع أصهب بسرعة فائقة ملتحقاً بفراشه.

ذلك أنّ الموجِّه كان قد عاد إلى مسرح الأحداث، بغتةً!

2

- نعم، قال فيولون، لقد قبّلتكَ يا مارسو؛ يمكنك الاعتراف بذلك، لأنك لم ترتكب أيَّ خطأ. قبّلتُكَ على جبينك، لكنَّ أصهب لا يمكنه أن يفهم، وهو أصلاً في منتهى التفسّخ بالنسبة إلى عمره، أنّها قبلة طاهرة وعفيفة، قبلة من أب إلى ابنه، وأنني أحبّك مثل ابني، وإنْ شئتَ مثل أخي، وغداً سوف يذهب ليكرّر تفاهات، يا له من أحمق مسكين!

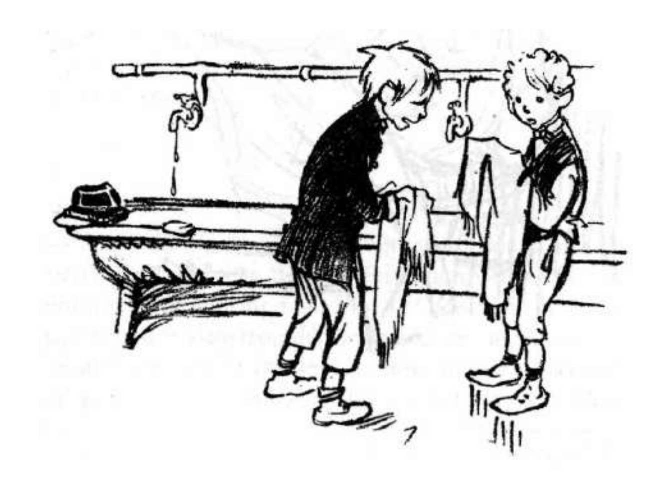
ومع هذه الكلمات، وبينما كان صوت فيولون يرتجّ مكتوماً، تظاهر أصهب بالنوم. ومع ذلك فقد رفع رأسه قليلاً كي يسمع أكثر.

استمع مارسو لموجِّه التلامذة، ماسكاً أنفاسه بقوّة، ومع أنّه وجد كلماته طبيعيّة جدّاً، فقد ظلّ يرتجف كما لو كان يخشى انكشافَ سرٍّ ما. تابعَ الموجِّه فيولون بأخفّ صوت ممكن. كانت كلمات مغمغَمة، غير واضحة، بعيدة، مقاطع لفظيّة لا تكاد تُدرك. ولم يجرؤ أصهب على الاستدارة والتقلّب في فراشه، لكنّه أخذ يقترب رويداً رويداً، بواسطة تحريك خفيف لخاصرته، من دون أن يتوصّل إلى سماع شيء. وازداد انتباهه هياجاً إلى حدّ الشعور بأنّ أذنيْه تتجوّفان حقّاً وتتحوّلان إلى قِمْعَيْن، لكنّ أيّ صوت لا يسقط فيهما.



يتذكّر أنّه خبِرَ أحياناً مثل هذا الإحساس المجهد لدى تنصُّته خلف الأبواب، وإلصاق عينه في ثقب القفل، مع رغبة في توسيع ذلك الثّقب وجذب ما يريد رؤيته كما لو كان يستخدم مخْطافاً. وها هوَ ذا لا يزال يراهن. فقد كرّر فيولون مرّة أخرى:

ـ نعم، محبّتي طاهرة، طاهرة، وهذا ما لا يفهمه هذا الأحمق الصغير.



وفي الأخير انحنى الموجّه، بنعومة ظلٍّ، على جبين مارسو وقبّله وداعبه بلحيته القصيرة كما بريشة رسّام، ثمَ نهض ليغادر، فتابعه أصهب بعينيه وهو ينسحب بين صفوف الأسرّة. وكلّما لامست يد فيولون طرفَ وسادة يتقلّب النائم المنزعج في سريره متأوّهاً بقوّة.

ظلّ أصهب يترصّد مطوّلاً. كان يخشى عودةً أخرى مباغتة لفيولون. وها هو ذا مارسو قد تكوّر في فراشه وغطّى عينيه بالغطاء، لكنّه لم ينم بعد. فهو لا يزال متأثّراً بالمغامرة التي لا يعرف لها تفسيراً. إذْ لم يجد فيها أيّ فعل قبيح يمكن أن يعذّبه، ومع ذلك ظلّت صورة فيولون، في ليل الأغطية، تطفو مشعّةً، ناعمةً، مثل صُوَر النساء التي أدفأتْه في أكثر من حُلم.

تعب أصهب من الانتظار. بات جفناه يلتصقان كأنّهما مُمَغْنَطان. رأى أنْ يُلْزِمَ نفسه بالتّحديق في شعلة الإنارة التي تكاد تنطفئ؛ لكنّه بعد أن أحصى انبثاق ثلاث فقاعات صغيرة مفرقعة، استعجلتِ الخروجَ من القنديل الغازيّ، استغرق في النّوم.

صباحَ الغد، أمام المغسلة، وبينما كانت زوايا أطراف المناشف المغطّسة في قليل من الماء البارد تفرك، برفقٍ، الوجنات الصقيعيّة، نظر أصهب بخبثٍ إلى مارسو، وأجهد نفسه كي يظهر أكثر شراسة، ثمّ شتمه مجدَّداً وهو يشدّد على الحروف.

ـ لقد قبّلك! لقد قبّلك!

صار خدَّا مارسو قرمزيّيْن، لكنه ردّ من دون غضب وبنظرة توسّل تقريباً:

ـ لقد قلت لك بأنّ ما ذهبتَ إليه ليس صحيحاً!

تولّى الموجِّه مراقبة نظافة الأيدي. وبدأ التلاميذ آليّاً يعرضون، في صفّيْن، ظاهر اليديْن وباطنهما في حركة تقليب سريعة، ليعيدوها فوراً إلى الدفء، داخل جيوبهم، أو تحت أقرب لحاف فاتر الحرارة. كان فيولون في العادة يمتنع عن رؤية يدَيْ أصهب. أمّا هذه المرّة، وهو مغتاظ، فقد وجد أنّ يديْ أصهب ليستا نظيفتيْن. وطلب منه إعادة غسلهما. فثار أصهب. وكان يمكن تمييز بقعة مزرقّة اللّون في يده، لكنّ أصهب ردّ بأنّها بداية تشقّق بفعل البرد. ولا شكّ أن هناك سوء نيّة في الموضوع.

اضطُرَّ فيولون إلى مرافقته للسيّد المدير.

وكان هذا الأخير قد جاء مبكّراً ليُجهّز في مكتبه القديم الأخضر درساً في التّاريخ سيقدّمه للكبار خلال أوقات فراغه. كان يضغط بأطراف أصابعه الغليظة على بساط طاولته ويضع أهمّ المَعالم: هنا سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة؛ في الوسط، استيلاء العثمانيّين على القسطنطينيّة؛ وأبعد قليلاً، التاريخ الحديث الذي لا نعرف متى يبدأ ومتى ينتهي.

كان يرتدي مبْذلاً فضفاضاً ومزيّناً بشرائط مطرّزة تحيط بصدره القويّ، فتبدو أشبه بحبالٍ حولَ عمودِ بناء. هذا الرّجل يأكل كثيراً على ما يبدو؛ قسماته غليظة وتلمع قليلاً بشكلٍ دائم. يتكلّم بصوتٍ عالٍ حتّى مع النساء، وتتموّج طيّات عنقه على ياقته بإيقاع بطيء. ويتميّز أيضاً بعينيه الدّائريّتيْن وكثافة شاربيْه.

وقف أصهب أمامه واضعاً قبّعته بين ساقيه، حتّى يحافظ على حريّة الحركة.

سأل المدير بصوت مُرعب:

- ماذا هناك؟

- سيّدي، لقد أرسلني الموجِّه لأقول لك بأنّ يديَّ قذرتان، وهذا ليس صحيحاً!

ومن جديد، وبشكل متعمّد، أظهر أصهب يديْه للمدير مع قلْبهما: ظاهر اليدين ثمّ باطنهما. هكذا قدّم براهينه: باطن اليدين ثمّ ظاهرهما.

- آه! هذا ليس صحيحاً، قال المدير، أربعة أيّام حجْز، يا صغيري!

- سيّدي، قال أصهب، الموجِّه حاقد عليَّ!

- آه! حاقد عليك! ثمانية أيّام، يا صغيري!

أصهب ذو دراية بطباع المدير. ولن يُجدي معه مثل هذا الهدوء. لقد قرّر المواجهة. وقف مستقيماً، جمع ما بين ساقيْه وتجاسر مجازفاً بتلقّي صفعة.

فمن المعروف عن السيّد المدير أنه يلجأ أحياناً إلى عادته البريئة في صفع تلميذ عنيد بقفا يده: طقْ! وتتمثّل مهارة التلميذ المستهدَف وقتذاك في توقّع الصفعة والانحناء في الوقت المناسب، فيفقد المدير توازنه وسط الضحك المكتوم للجميع. لكنّه لا يعيد المحاولة، إذْ يمنعه كبرياؤه من اللّجوء إلى الحيلة بدوره. يتوجّب عليه بلوغ الخدّ المقصود مباشرة، أو عدم المحاولة أصلاً.

- سيّدي، قال أصهب بجرأة حقيقيّة وأنَفَة، الموجِّه ومارْسو يفعلان أشياء!

وعلى الفور تعكّرت عينا المدير كما لو باغتتْهما ذبابتان صغيرتان. استند بقبضتيْه على الطاولة في حالة نصف وقوف ورأسه إلى الأمام كما لو أنه يتأهّب ليصدم أصهب في وسط صدره، وسأل بصوت يحشرج في حنجرته:

- أيّة أشياء؟

بدا أصهب وكأنه بُوغت. كان يتوّقع (وربّما هي عمليّة تأجيل فقط) أنْ يتلقّى مجلّداً ضخماً من مؤلّفات السيّد هنري مارتان على سبيل المثال، مقذوفاً من يد ماهرة لا تخطئ الهدف، وإذا هو

مُطالب بتقديم تفاصيل.

المدير ينتظر الآن. اجتمعت طيّات عنقه كلّها لتشكّل كتلة واحدة، دائرة كثيفة من الجلد يتصدّرها رأسه مائلاً.

تردّد أصهب مستغرقاً في اقتناعه بأنّ الكلمات لن تسعفه، ثمّ بدا مرتبكاً، وأحنى ظهره في حالة خرقاء وخجولة، بحث عن قبّعته بين ساقيه وسحبها مسطّحة ومملّسة، انحنى أكثر، تقلّص، رفع القبّعة بهدوء إلى مستوى ذقنه، وبحركة بطيئة وتكتّم وحذر وحياء، حشا رأسه القرديّ داخل البطانة القطنيّة، من دون أن ينبس بكلمة.

4

في اليوم نفسه، وبعد تحقيق قصير، تمّ الاستغناء عن خدمات فيولون! وكان رحيلاً مؤثّراً أشبه باحتفال.

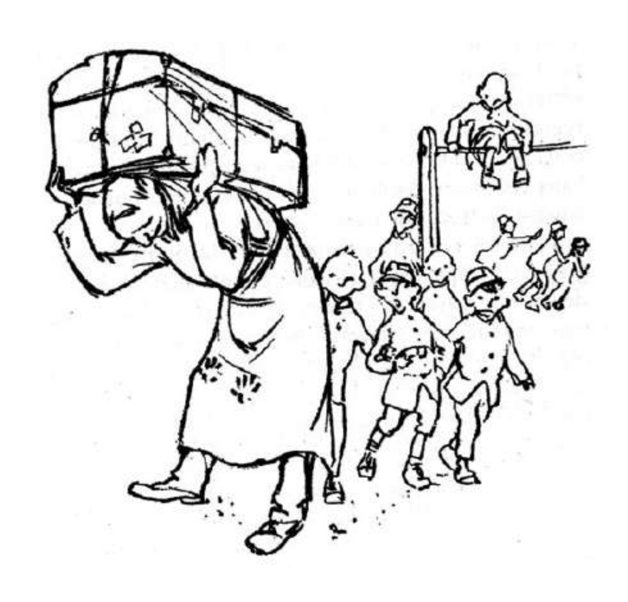
- سأعود، قال فيولون، إنّه مجرّد تغيّب مؤقّت.

ولا أحد صدّقه، طبعاً. وهكذا يجدّد المعهد مِلاك المستخدَمين وكأنّه بات يخشى التعفّن. حركة ذهاب وإياب دؤوبة للموجِّهين. وهذا الموجِّه يرحل بدوره مثل الآخرين، وأكثر من ذلك فهو يغادر بسرعة. الجميع تقريباً يُحبّونه. لا يوجد له مثيل في فنّ تخطيط الأسماء والمعلومات في الدفاتر على غرار: **دفتر التّمارين اليونانيّة لصاحبه...** جاعلاً حروف البدء كأنها مطبوعة على طريقة يافطات المخازن. تفْرغ مقاعد التلامذة الذين يتحلّقون حول مكتبه. تتجوّل يده الجميلة على الورقة بأناقة، وقد زيّن إصبعَه خاتمٌ ذو حجر أخضر. في أسفل الصفحة يرتجل توقيعاً يسقط مثل حجر في الماء داخل تموّجات من السطور المنتظمة والنزقة التي تشكّل التوقيع، في عمل فنّي رائع. ويضيع آخر التوقيع داخل التوقيع نفسه. ويتطلّب الأمر معاينته عن قرب والبحث مطوّلاً للعثور عليه. ولا حاجة إلى القول بأنّ كلَّ ذلك مشغول بسحبة واحدة من الريشة. ذات مرّة تمكّن من تشبيك مجموعة من السّطور كما في النقوش الصّغيرة التي تُزيّن نهاية الفصول في الكتب. فأدهش الصغار لفترة طويلة.

لذلك تألّموا كثيراً لطرده.

اتّفقوا على ضرورة «طنطنة» المدير في أقرب فرصة، أي نفخ خدودهم واستخدام شفاههم لتقليد تحليق اليعاسيب، وذلك للإعراب عن استيائهم. وهو ما سوف يتمكّنون من تحقيقه بعد بضعة أيّام.

في انتظار ذلك، اغتمّ الجميع. وكان من غنج فيولون أن اختار الرّحيل وقت استراحة التّلامذة في السّاحة. وعندما لاح في الساحة برفقة فتى يحمل حقيبته، اندفع كلّ الصغار نحوه. فصار يصافح الأيدي،



ويربّت على الوجوه، ويعمل على سحب أطراف سترته الطويلة كي لا تتمزّق. بدا مطوَّقاً، مُكتسَحاً، مبتسماً ومتأثّراً. كان البعض معلّقين على عارضة القفز فيتوقّفون عن حركاتهم الرياضيّة ويقفزون إلى الأرض مفتوحي الأفواه ناضحي الجبهات عرَقاً، مشمّري القمصان، منفرجي الأصابع بسبب صمغ البطم الذي كثيراً ما يستخدمونه. بينما كان غيرهم أكثر هدوءاً يجوبون الباحة برتابة ويحرّكون أيديهم بإشارت وداع. توقّف الفتى الرازح تحت ثقل الحقيبة مبتعداً قليلاً عن الجمهرة. وذلك ما استغلّه طفل صغير جدّاً كي يطبع ثوبه الأبيض بأصابعه الخمسة الملوّثة بالرمل المبلول. تورّد خدّا مارسو حتّى ظهرا كأنّهما مدهونان بالأحمر. إنه يشعر بأولى بوادر تباريح القلب الجادّة؛ لكنّه كان مرتبكاً ومضطرّاً إلى الاعتراف بأنه يأسف على رحيل الموجِّه كما على ابنة عم صغيرة. لذلك مكث منزوياً قليلاً، قلقاً، وشاعراً بالعار تقريباً. ومن دون أيّ ارتباك، تقدّم الموجِّه نحوه، وهي اللحظة التي دوّت فيها فرقعة انكسار زجاج في إحدى النوافذ.

اتّجهت كلّ الأنظار نحو الشبّاك الصغير المشبّك بالحديد في غرفة الحجز. لاح منه رأس قبيح ومتوحّش هو رأس أصهب. كان يكشّر ممتقعاً مثل حيوان متضايق من قفصه. شعْرُه يغطي عينيه وأسنانه بارزة في الهواء. مرَّرَ يده اليمنى عبر حطام الزجاج الذي جرحه وكأنه ينتقم، وبدأ يهدّد فيولون بقبضته النازفة.

- أيها الأحمق الصّغير! قال الموجِّه، ها إنّك مرتاح الآن!

- أجل! صرخ أصهب وهو يندفع بحيويّة فيكسر، بقبضة ثانية، زجاجاً آخر، لماذا كنتَ تقبّله، ولا تقبّلني أنا؟

وأضاف، ملطّخاً وجهَه بالدّم السائل من يده الجريحة:

- أنا أيضاً، يصير لي خدّان أحمران، عندما أحقِد!

القمل

ما إن وصل الأخ الأكبر فيليكس وأصهب من معهد سان- مارك، حتّى أخضعتهما السيّدة لوبيك لحمّام خاص بغسل القدميْن. فهما في حاجة إليه منذ ثلاثة أشهر، فالأقدام لا تُغسل أبداً في المبيت الداخليّ. زدْ على ذلك عدم وجود أيّ بند في لوائح المعهد يخصّ هذه الحالة.

- لا شكّ أن قدميك سوداوان الآن يا أصهبي المسكين، قالت السيّدة لوبيك.

ولقد كانت محقّة. إنّ قدمَي أصهب هما دائماً أشدّ سواداً من قدمَيْ الأخ الأكبر فيليكس. ولماذا يا ترى؟ فهما يعيشان متجاوريْن، ويخضعان للنظام نفسه، وفي جوّ واحد. صحيح أنّ الأخ الأكبر فيليكس لا يستطيع إظهار قدمين بيضاوين بعد مرور ثلاثة أشهر، غير أن أصهب، وهذا باعترافه شخصيّاً، لم يعد يتعرّف على قدميْه من شدّة اتّساخهما.



ولشعوره بالخجل، دفع بهما في الماء بمهارةٍ مشعوذ. ولم يشاهدْهما أحدٌ يخرجان من الجورَبيْن ويختلطان بقدمَيْ الأخ الأكبر فيليكس اللتيْن ملأتا قاع الدلو كلّه، وسرعان ما انتشرت طبقة من الوسخ على الأقدام الأربع الفظيعة.

كان السيّد لوبيك يتجوّل كعادته من شبّاك إلى آخر. ويعيد قراءة أوراق العلامات المدرسية الفصليّة الخاصة بولديْه، ولا سيّما الملاحظات التي كتبها السيّد المدير بخطّ يده وتخصّ الأخ الأكبر فيليكس:

- «طائش، لكنّه ذكيّ. يستطيع النّجاح.»

ثمّ الملاحظة المتعلّقة بأصهب:

- «يتميّز عندما يرغب، لكنّه لا يرغب دائماً.»

تسلّت العائلة كثيراً بفكرة أنّ أصهب قادر على التّميّز أحياناً. وهو الآن يربّع ذراعيْه على ركبتيْه، تاركاً قدميْه تتبلّلان وتنتفخان مرتاحتيْن. كان يشعر أنه تحت التفحّص. وهناك انطباع بأنه

زاد دمامة بسبب شعره الذي طال أكثر ممّا يجب ولون بشرته الذي صار أحمرَ داكناً. وبالنّظر إلى أنّ السيّد لوبيك يكره التظاهر بفيض الحنان فإنه لم يبرهن على فرحه برؤيته إلاّ عبر معاكسته. ففي الذهاب، ينقر أذنه بإصبعه الوسطى، وفي الإياب، يدفعه بكوعه، فيضحك أصهب ملء قلبه.

وفي الأخير أدخل السيّد لوبيك يده في شعر أصهب وطقطق بأظافره كما لو كان يقتل قملاً. وهذه مزحته المفضّلة.

لكنّه، وفي أول محاولة، قتل قملة.

- آه! لقد أحسنت التسديد، قال، لم أخطئْها.

وبينما كان يمسح أصابعه في شعر أصهب متقزّزاً قليلاً، رفعت السيّدة لوبيك ذراعيْها نحو السماء:

- كنت أشكّ في ذلك، قالت بضنى. يا إلهي! نحن نظيفون! اركضي يا إرنستين وهاتي الطشت، هذا جهد إضافيّ لك.

جلبت الأخت إرنستين طشتاً ومشطاً ناعماً، وبعض الخلّ في جفنة صغيرة، وبدأت عملية الصيد.

- باشري بتمشيطي أنا! صاح الأخ الأكبر فيليكس. أنا متأكّد أنه هو الذي نقله إليَّ.

وشرع يكشط رأسه بأصابعه مهتاجاً وطلب دلو ماء كي يُغرق كلّ شيء.

- إهدأْ يا فيليكس، قالت الأخت إرنستين المعروفة بتفانيها، لن أؤلمك.

أحاطت رقبته بمنديل، وبرهنت على مهارة أمٍّ وصبرها. كانت تباعد بين خصلات الشعر بِيَدٍ وتمسك المشط بالأخرى، وتبحث من دون علاماتِ قرف أو خوف من اصطياد سكّان الشّعر.

وعندما تقول: واحدة أخرى! يرفس الأخ الأكبر فيليكس بقدميه داخل الطشت ويهدد بقبضته أخاه أصهب الذي ينتظر دوره صامتاً.

- انتهى البحث بالنسبة لك، يا فيليكس، قالت الأخت إرنستين، لم يكن عندك سوى سبع أو ثماني قملات؛ تستطيع عدّها. وسوف نعدّ قملات أصهب فيما بعد.

ومع ضربات المشط الأولى تمكّن أصهب من الفوز. ظنّت الأخت إرنستين أنّها وجدت العشّ، والحال أنّها لم تفعل سوى أن جمعت ما وجدت بالصدفة في شعره الذي كان أشبه ما يكون ببيتِ نمل.

تحلّق الجميع حول أصهب. الأخت إرنستين تثابر، والسيّد لوبيك يتابع سير العمليّة بيدين خلف ظهره مثل غريب فضوليّ، والسيّدة لوبيك تصيح شاكيةً.

- أوه! أوه! قالت، نحتاج إلى ممشاط ورفش.

كان الأخ الأكبر فيليكس يحرّك الطشت وهو مقرفص فيستقبل القمل الذي يسقط مغلّفاً بقشرة. ويمكن تمييز حركة القوائم الضئيلة مثل شعيرات هُدْبيّة مقطوعة. كان القمل يستجيب لتمايل الطشت وسرعان ما يقضي عليه الخلّ.

السيّدة لوبيك: حقّاً يا أصهب، لم نعد نفهمك. فتى في عمرك يتوجّب عليه أن يحمرّ خجلاً. يمكن أن أغضّ البصر عن قدميك اللّتين ربّما لا تراهما إلاّ هنا في البيت، لكنّ القمل يفترسك ولا تستنجد بموجّهيك ولا بعائلتك. أوضحْ لنا، أرجوك، ما المتعة التي تجدها في الاستسلام لعمليّة نهشك حيّاً. يوجد دم في شعرك.

أصهب: المشط يخدشني.

السيّدة لوبيك: آه! هو المشط إذن. هذه مكافأتك لأختك. هل سمعته يا إرنستين؟ السيّد هشّ وهوَ ذا يشتكي من حلاّقته. أنصحكِ يا ابنتي أن تتركي فوراً هذا الشهيد المتطوِّع لحشراته.

الأخت إرنستين: أنهيت العمل بالنسبة إلى اليوم، يا أمّي. لم أقم إلاّ بإزالة القسم الأكبر، وسوف أقوم بجولة أخرى غداً. ولا بدّ من التعطّر بالكولونيا.

السيّدة لوبيك: أمّا أنت يا أصهب فعليك أن تأخذ طشتك وتعرّضه للشمس على جدار الحديقة. ينبغي أن يراه كلّ سكان القرية، فلعلّك تخجل قليلاً.

تناول أصهب الطشت وخرج؛ وبعد أن عرّضه للشمس وقف أمامه من أجل المراقبة.

كانت العجوز ماري- نانيت هي أوّل من اقترب. كانت كلّما رأت أصهب تتوقّف وتتفحّصه بعينيها الصغيرتين الحسيرتيْن الماكرتيْن، فتحرّك قلنسوّتها السوداء وكأنّها تحزر أشياء.

- ما هذا؟ قالت.

لم يُجبْها أصهب. فانحنت على الطشت.

- هل هو عدس؟ حقّاً لم أعد أرى جيّداً. ينبغي على ابني بيير أن يشتري لي نظارتين.



استخدمت أصابعها للّمس وربّما للتذوّق أيضاً، فهي حتماً لم تفهم.

- وأنت، ماذا تفعل هناك، حارداً وعيناك مضطربتان؟ أراهن أنّك عوقبتَ وأُجبرْتَ على البقاء هنا للتّوبة. إسمعْ، أنا لست جدّتك، لكنني أفكّر كما أفكّر، وأرثي لحالك، يا صغيري المسكين، لأنني أعتقد أنهم ينغّصون عليك عيشك.

تأكّد أصهب بنظرة سريعة أن أمّه لن تتمكّن من سماعه، وقال للعجوز ماري- نانيت:

- وماذا أيضاً؟ هل هذا يعنيك؟ انتبهي لشؤونك ولا تزعجيني.

مثل بروتوس

السيّد لوبيك: يا أصهب، لم تعمل خلال العام الماضي كما كنتُ آمل. أوراق علاماتك تقول إنّك قادر على تقديم ما هو أفضل بكثير. تستغرق في الأحلام، تطالع كتباً ممنوعة. تتمتّع بذاكرة ممتازة وتحصل على علامات لا بأس بها على الدروس لكنّك تُهمل فُروضك. لا بدّ يا أصهب من التفكير في توخّي الجدّية.

أصهب: اعتمدْ عليَّ يا أبي. أوافقك الرّأي أنّني تقاعست قليلاً خلال السنة الماضية. أمّا الآن فأنا أشعر بعزيمةٍ للعمل من دون انقطاع. لكنّني لا أعدك بأن أكون الأوّل في الصفّ في كلّ الموادّ.

السيّد لوبيك: حاولْ على كلّ حال.

أصهب: كلاّ، يا أبي، أنت تطالبني بالكثير. لن أنجح في الجغرافيا ولا في اللغة الألمانيّة ولا في الفيزياء والكيمياء، إذْ أنّ المتفوّقين في هذه الموادّ هم اثنان أو ثلاثة ليست لهم أية كفاءة في المواد الأخرى ويقتصرون على ذلك. ومن المستحيل منافستهم؛ لكنني أريد- اسمعْ يا أبي- أريد، في مادة الإنشاء الفرنسيّ، أن أكون في المركز الأول مع المحافظة عليه، وإذا أفلتَ منّي رغم جهودي، فلن يكون هناك ما ألوم عليه نفسي على الأقلّ، ويمكنني حينئذ أن أصرخ بكلّ فخر، مثل بروتوس: آه أيتها الفضيلة! ما أنتِ إلاّ مجرّد اسم!

السيّد لوبيك: آه! يا بني، أعتقد أنك سوف تتفوّق عليهم.

الأخ الأكبر فيليكس: ماذا يقول، يا أبي؟

الأخت إرنستين: أنا، لم أسمع شيئاً.

السيّدة لوبيك: أنا أيضاً، لم أسمع شيئاً. هلاّ كرّرتَ كلامك يا أصهب؟

أصهب: أوه! لا شيء يا أمّي.

السيّدة لوبيك: كيف؟ لم تقلْ شيئاً، وكنتَ تخطب ولونك أحمر وقبضتك تهدّد السماء بصوت قوي بلغ آخر القرية! أعِدْ تلك الجملة حتّى يستفيد الجميع.

أصهب: لا حاجة إلى ذلك، هيّا، يا أمّي.

السيّدة لوبيك: بلى، بلى، كنتَ تتحدّث عن شخص؛ عمّنْ كنتَ تتحدّث؟

أصهب: أنتِ لا تعرفينه، يا أمّي.

السيّدة لوبيك: هذا سبب إضافيّ. أوّلاً، عُدْ إلى رُشدك، لو سمحت، ثمّ أطِعْ.

أصهب: كلّ ما هنالك يا أمّي، أنني كنت أتحدّث مع أبي وهو يقدّم لي نصائح صديق، ومن باب الصدفة، لست أدري كيف جاءتني فكرة شُكْرِه، واللجوء، على طريقة ذلك الرّومانيّ المدعوّ بروتوس، إلى ذكر الفضيلة...

السيّدة لوبيك: ها ها ها، أنت تتلعثم. أرجوك أن تعيد جملتك التي قلتها منذ قليل، بالنّبرة نفسها، ومن دون تغيير أيّ كلمة. أعتقد أنني لا أطلب منك المستحيل، ويمكنك أن تستجيب لطلب أمّك.

الأخ الأكبر فيليكس: هل تريدين أن أعيد أنا يا أمّي؟

السيّدة لوبيك: كلاّ، هو الأوّل، وأنت بعده، وسوف نقوم بعمليّة مقارنة. هيّا يا أصهب، بسرعة.

أصهب، يتلعثم بصوت باكٍ: أيّ..تها ال...فضيلة... ما... أنتِ إلاّ مجرّ...د اسم.

السيّدة لوبيك: أشعر باليأس. لا يمكن الحصول على شيء من هذا الفتى. تلقّي ضرب العصا أفضل عنده من نيل إعجاب أمّه.

الأخ الأكبر فيليكس: اسمعي يا أمّي، ها هي ذي الطريقة التي قال بها ذلك: جال ببصره وأرسل نظرات تحدٍّ. إذا لم أكن الأوّل في مادة الإنشاء الفرنسيّ. ينفخ خدّيْه ويرفس بقدميْه، فسوف أصرخ مثل بروتوس: يرفع ذراعيْه إلى السقف. أيّتها الفضيلة! يترك ذراعيه تسقطان على فخذيه، ما أنتِ إلاّ مجرّد اسم! هكذا قال ذلك.

السيّدة لوبيك: برافو! رائع! أهنّئك يا أصهب، وأرثي لعنادك أكثر لأنّ أيّ تقليد لا يساوي الأصل أبداً.

الأخ الأكبر فيليكس: لكنْ يا أصهب، هل أنت متأكّد أنّ بروتوس هو الذي قال ذلك؟ أليس كاتون[2]؟

أصهب: أنا متأكّد أنه بروتوس. «ثمّ ارتمى على سيفٍ مدّه له أحد أصدقائه ومات.»

الأخت إرنستين: أصهب محقّ. أتذكّر أيضاً أنّ بروتوس كان يتظاهر بالجنون واضعاً بعض الذهب في عكّاز.

أصهب: عفواً يا أختي، أنت تشوّشينني. تخلطين بين بروتوسي وشخص آخر.

الأخت إرنستين: ظننتُ ذلك. على أيّة حال أؤكّد لك أنّ الآنسة صوفي تُمْلي علينا درس تاريخ لا يقلّ قيمة عن درس أستاذك في الثانويّة.

السيّدة لوبيك: ليس مهمّاً. لا تتخاصما. المهمّ أن يكون هناك بروتوس في العائلة، ولقد حصلنا عليه. ولْيحسدْنا الآخرون بفضل أصهب! لم نكنْ على علم بهذا الشرف. عبّروا عن إعجابكم ببروتوس الجديد. إنه يتكلّم اللاتينية مثل أسقف ويرفض إعادة القُدّاس مرّتين من أجل الصُّمّ. أديروه على وجهه وقفاه: إذا شوهد من الأمام فهو يُظهر بقعاً على سترته التي يستفتح بها اليوم، وإذا شوهد من الخلف، يُرى بنطاله الممزَّق. إلهي، أين تراه حشرَ نفسه من جديد؟ هيّا، تمعّنوا في مظهر أصهب بروتوس! يا لك من إنسان فظّ، اذهبْ!

رسائل مختارة

من أصهب إلى السيّد لوبيك
وبعض الإجابات
من السيّد لوبيك إلى أصهب
من أصهب إلى السيّد لوبيك

معهد سان- مارك

أبي العزيز،

لقد جعلتْ نُزهات الصيد مزاجي في حيويّة. هناك دمامل كبيرة تظهر بين فخذيَّ. أنا الآن طريح الفراش. أمكث مستلقياً على ظهري وتتولّى السيدة الممرّضة وضع كمّادات لي. ويظل الدّمّل يؤلمني ما دام لم ينفقئ. بعد ذلك أنساه. لكن الدمامل تتكاثر مثل الكتاكيت. ومقابل شفاء واحد يبرز ثلاثة. مع ذلك أتمنّى أن يكون الأمر بسيطاً.

ابنك المخلص.



ردّ السيد لوبيك

عزيزي أصهب،

بما أنّك تتهيّأ لتناول قربانك الأول وتَحْضر دروس التّعاليم المسيحيّة، يتوجّب عليك أن تعرف بأنّ الجنس البشري لم ينتظرك لكي يُصاب بالدّمامل. كان ليسوع المسيح دمامل في اليديْن وفي القدميْن. ولم يكن يشتكي مع أنّ دماملِه كانت حقيقيّة.

تشجّعْ!

والدك الذي يُحبّك.

من أصهب إلى السيد لوبيك

أبي العزيز،

أُعلمك بكلّ سرور أن سِنّاً جديدة قد نبتتْ لي مؤخّراً. ومع أنني مازلت صغيراً أعتقد أنّها سنّ عقل مبكّرة. وأنا أجرؤ على الأمل بألاّ تكون الوحيدة، وأن أرضيك دائماً بحسن سلوكي ومثابرتي.

ابنك المخلص.

ردّ السيد لوبيك

عزيزي أصهب،

في الوقت الذي كانت تنبت فيه سنّك بالضّبط، بدأت إحدى أسناني تتخلخل. وقرّرَتِ السقوط صباح أمس. بحيث إذا صرتَ تملك سنّاً إضافيّة، فوالدك باتت له سنّ ناقصة. ولهذا لم يتغيّر شيء، وعدد أسنان العائلة يبقى كما هو.

والدك الذي يُحبّك.

من أصهب إلى السيد لوبيك

أبي العزيز،

تصوّر أن عيد السيّد جاك، أستاذنا في اللغة اللاتينية، كان بالأمس، واتفق التلامذة بالإجماع على اختياري لكي أقدّم له تهانيَ الشعبة كلّها. ولقد أعجبني هذا التشريف فجهّزْتُ مطوّلاً نصّ الخطبة التي لجأتُ فيها إلى اقتباس بعض الأقوال اللاتينيّة المأثورة. ومن دون تواضع كاذب أحسست بالرضا. نسختها على ورقة كبيرة، ومع حلول اليوم الموعود، زاد زملائي في إثارتي هامسين: «هيّا! هيّا إذن!» استغلَلْت لحظة لم يكن فيها السيد جاك ينظر إلينا وتقدّمتُ نحو كرسيّه. لكنّني لم أكد افتح ورقتي وأتلفّظ بصوت جهوريّ:

أستاذنا الموقَّر

حتى نهض السيد جاك ساخطاً وصاح:

- هلاّ أسرعت بالعودة إلى مكانك!

ولا شكّ أنّك أدركتَ كيف ركضتُ وعدتُ للجلوس بينما اختبأ زملائي خلف كتبهم وأمرني السيد جاك غاضباً:

- ترجمِ النّص.

ما رأيك، يا أبي العزيز؟



ردّ السيد لوبيك

عزيزي أصهب،

عندما تصير نائباً في البرلمان، سوف ترى المزيد. لكلّ واحد دوره. وإذا كان قد تمّ وضعُ أستاذك على كرسيّ، فإنّ ذلك، كما يبدو، من أجل أن يلقي الخُطَب، لا من أجل أن يسمعها منك.

من أصهب إلى السيد لوبيك

أبي العزيز،

أوصلت أرنبك البرّيّ، للتوّ، إلى السيد لوغري، أستاذ التاريخ والجغرافيا. وبدا لي أن هذه الهديّة قد أفرحتْه، حقّاً. وهو يشكرك كثيراً. وبما أنني دخلت عنده بمظلّتي الكبيرة المبلّلة، فقد تناولها من بين يديَّ بنفسه لوضْعها في البهو. ثمّ تحدّثنا في عدّة مواضيع. وقال لي إنّه يتوجّب عليّ انتزاعُ الجائزة الأولى في التاريخ والجغرافيا، في نهاية السنة، إنْ أنا أردتُ. لكنْ، هل تصدّق أنني بقيت واقفاً على رجليَّ طيلة الوقت الذي استغرقه لقاؤنا، وأنّ السيد لوغري، الذي كان لطيفاً في كلّ ما عدا ذلك، أكرّر، لم يُشِرْ لي بالجلوس؟

هل هذا نسيان أم قلّة أدب؟

لا أدري. وكلّي فضول، يا أبي العزيز، لمعرفة رأيك.

ردّ السيد لوبيك

عزيزي أصهب،

أنت لا تكفّ عن الاعتراض والمطالبة. تعترض لأنّ السيد جاك أمرك بالجلوس، وتعترض لأنّ السيد لوغري تركك واقفاً. ربّما مازلت أصغر من أن تطالب بالتّقدير. وإذا كان السيد لوغري لم يقدّم لك كرسيّاً، فعليك أن تعذره: لا شكّ أنّ قصَر قامتك قد خدعه، فذهب به الظنّ إلى أنك كنت جالساً.

من أصهب إلى السيد لوبيك

أبي العزيز،

علمتُ أنّك ستذهب إلى باريس. أشاركك الفرح الذي ستشعر به خلال زيارتك إلى العاصمة التي أتمنّى معرفتها برفقتك. أُدرك أنّ مشاغلي المدرسيّة تمنعني من هذه الرحلة، لكنني أنتهز الفرصة لأسألك إنْ كان يُمكنك أن تقتنيَ لي كتاباً أو كتابيْن. فالكتب التي بحوزتي بتّ أحفظها عن ظهر قلب. اخْترْ لي ما تشاء. فكلّ الكتب مفيدة، لكنني في الحقيقة أرغب بالخصوص في كتاب «الهنرياد» لفرنسوا- ماري-آروي دي فولتير، و«هيلويز الجديدة» لجان جاك روسو. وإذا جلبتهما لي (الكتب في باريس لا تكلّف كثيراً) أقسم لك أنّ الموجِّه لن يصادرهما منّي أبداً.

ردّ السيد لوبيك

عزيزي أصهب،

الكُتّاب الذين حدّثتني عنهم كانوا بشراً مثلك ومثلي. وما فعلوه يمكنك أن تفعله. أَلِّفْ كتُباً، وسوف تقرؤها لاحقاً.

من السيد لوبيك إلى أصهب

عزيزي أصهب،

رسالتك التي وصلتني هذا الصباح حيّرتني حقّاً. ولقد أعدتُ قراءتها. لم أجد فيها أسلوبك المعتاد، كما إنّك تتحدّث عن أشياء غريبة لا تبدو لي من اختصاصك أو من اختصاصي.

في العادة تروي لنا شؤونك الصغيرة، وتُخبرنا بالرتب التي حصلت عليها، وبالمحاسن والمساوئ التي تجدها لدى كلّ أستاذ من أساتذتك، وأسماءِ رفاقك الجدد، وحالةِ غسيلك، وعمّا إذا كنت تنام وتأكل جيّداً.

هذا ما يهمّني. أمّا اليوم فلم أفهم. هل في إمكانك، لو سمحت، أن توضّح لي ما معنى هذا الاستطراد حول فصل الربيع والحال أننا في فصل الشتاء؟ ماذا تقصد؟ هل تحتاج إلى لثام أو ما يدفئ وجهك؟ رسالتك لا تحمل تاريخاً ولا يمكن التأكّد من أنها موجّهة إليَّ أم إلى الكلب. حتّى شكل كتابتك بدا لي مختلفاً، وحيّرني توزيع الأسطر على الصفحة، وعدد المرّات التي تعود فيها إلى السّطر. باختصار، تبدو وكأنك تسخر من أحد ما. أفترض أنّه أنت. واعلمْ أنّ نيّتي لم تكن تجريمك، بل مجرّد الملاحظة.

ردّ أصهب

أبي العزيز،

كلمة سريعة كي أفسِّر لك رسالتي الأخيرة. ألم تنتبه إلى أنّها قصيدة شعر؟

السّقف

هذا السّقف الذي عاش تحته على التوالي، الدّجاج والأرانب ودواجنُ أُخرى، بات فارغاً الآن، ومِلْكاً كاملاً لأصهب خلال فترة العطلة. وهو يدخل إليه بسهولة لأنه فقَدَ بابَه. تزيّن عتبته بعض نباتات القرّيص الدقيقة التي تبدو غابةً عندما يشاهدها أصهب منبطحاً على بطنه. تغطّي أرضه طبقة رقيقة من الغبار. وتلمع حجارة الجدران من الرطوبة. ويستطيع أصهب ملامسة سقفه بشَعره. هنا يشعر أنه في بيته ويتسلّى محتقراً الألعاب المُمِلّة التي لا تترك مجالاً لنشاط المخيّلة.

تتمثّل تسليته المفضّلة في حَفْر أربعة أعشاش بمؤخّرته، واحد في كلّ زاوية. ويجرُّ بيده دفعات من الغبار مستخدماً يده كمجرفة ثمّ يتكئ.

ظهره إلى الجدار الأملس، رجلاه مطويتان ويداه مشبوكتان على ركبتيه. وها هو ذا يركن إلى مأواه، شاعراً بالارتياح. يكفيه هذا المكان حقّاً لكي ينسى العالم، ولا يخشاه. ولا يمكن أن يبلبل عزلته إلاّ دويّ رعد مفاجئ.

ماء غسيل الصحون الذي يسيل قريباً من مكانه، عبر ثقب المغسلة، ويتدفّق بقوّة أحياناً، وقطرة قطرة في أحيان أخرى، يبعث إليه بنفحات منعشة.

فجأة، إنذار.

نداءات تقترب، خطوات.

ـ أصهب؟ أصهب؟

انحنى رأسُ أحدهم، فتكوّر أصهب وضغط نفسه بين الأرض والجدار قاطعاً أنفاسه، فاتحاً فمه، ومثبّتاً نظراته أيضاً. لقد أحسّ أنّ هناك عينيْن تبحثان في الظلّ.

ـ أصهب، هل أنت هنا؟

ينتفخ صدْغاه، يتألّم. سيصرخ من شدّة الحصر.

ـ الحيوان الصغير ليس هنا. أين هو يا ترى؟

يبتعد الصوت ويرتخي جسم أصهب قليلاً، مستعيداً بعض الراحة.

وعادت أفكاره لتجوب دروباً طويلة من الصمت.

غير أنّ ضجّة ملأت أذنيه. ذبابة صغيرة في السقف وقعت في نسيج عنكبوت، وبدأت تهتزّ وتقاوم. انساب العنكبوت على خيط من خيوط نسيجه. لبطنه بياض لُباب الخبز. ظلّ متأرجحاً لحظة، حائراً، متكوّراً.

انتصب أصهب على طرف إليته وبدأ يراقب متشوّقاً للخاتمة، وعندما هجم العنكبوت الفظيع وأغلق قوائمه ليخنق الفريسة، وقف أصهب مشغوفاً كما لو أنه يريد حصّته.

لا شيء أكثر من ذلك.

عاد العنكبوت متسلّقاً إلى الأعلى. وعاد أصهب إلى الجلوس، إلى الانغماس في ذاته، في روحه التي تشبه روح أرنب برّية في العتمة.

ومثلَ خيطِ ماءٍ أثقله الرمل، سرعان ما توقّفت أحلام يقظته، لعدم وجود منحدر تنزلق عليه، وشكّلت بركة صغيرة ثمّ تعفّنت.

القطّ

1

كان أصهب يعرف قطّاً يكرهه الجميع لأنه مُسنّ ومريض، ومنتوف الشَّعر في مواضع عديدة من جلده. دعاه أصهب لتناول طاس حليب في بيته، أي تحت سقفه. وهكذا يكونان بمفردهما. ويمكن أن يغامر جرذٌ بالخروج من الجدار، غير أنّ أصهب لم يَعِدْه إلاّ بطاسِ حليب. لقد وضعه في زاوية ودفعَ القطّ نحوه قائلاً:

- استمتعْ.

لاطفَ ظهره، أطلق عليه أسماء رقيقة، راقبَ حركة لسانه وهو يلحس الحليب، ثمّ ترفّقَ به:

- تمتّعْ بما تبقّى لك أيّها المسكين.



أفرغَ القطّ طاس الحليب، ونظّفَ قاعه، ولحسَ حافّته، ولم يبقَ له ما يلحسه سوى شفتيه المحلاّتيْن.

- هل أكملتَ، أكملت تماماً؟ سأله أصهب الذي مازال يربّت على ظهره. لا شكّ أنّك مستعدّ لاحتساء طاس آخر؛ لكنّني لم أتمكّن إلاّ من سرقة هذا. وعلى أيّة حال، ما من فرق، إنْ تمّ الأمر فوراً، أو بعد قليل!

وعقبَ هذه الكلمات سدّدَ بندقيّة الصّيد إلى جبينه وأطلق.

- لا يبدو ميّتاً، قال أصهب. عجباً! مع أنني سدّدتُ جيّداً.

ولم يجرؤ على التحرّك. كان القطّ يدلّ بارتجافِ جسمه أنه مازال حيّاً، لكنّه لا يبذل أيّ جهد لتغيير مكانه.



وليس أصهب مبتدئاً. فقد قتل طيوراً برّية، وحيوانات داجنة، وكلباً، وكلّ ذلك من أجل متعته الشخصيّة أو لحساب غيره. ويعرف الإجراءات جيّداً، فإذا كان الحيوان صعب القتل، فلا بدّ من الاستعجال والتهيّج، والغضب، والمجازفة بالمجابهة إنْ استدعت الحاجة. وإلاّ سيطرت على المرء عوارض حساسية مزيّفة. فيصير جباناً، ويضيع الوقت؛ ولا ينتهي إلى حلّ.

في البداية جرّب بعض التّهيّج الحذر. ثم أمسك بالقطّ من ذيله ووجّه إلى رقبته ضربات بالبندقيّة، كانت من العنف إلى حدّ بدت معه كلّ ضربة وكأنّها هي الأخيرة، الضربة القاضية.

بقوائمَ متخبّطة لاح القطّ المحتضر ينشب مخالبه في الهواء، وتكوّرَ على نفسه، أو تمدّدَ من دون مواء.

ـ من الذي قال لي إنّ القطط تبكي عندما تموت؟ قال أصهب.

لقد عيل صبره. طالت العمليّة أكثر ممّا يجب. ألقى بالبندقيّة، أحاط القطّ بذراعيه، وانبرى، متفادياً مخالبه، ضاغطاً أسنانه، منتفخ العروق، وخنَقَه.

لكنّه اختنق بدوره، ترنّح منهَكاً وسقط على الأرض...[3]

2

أصهب نائم الآن على سريره الحديديّ.

أهله وأصدقاؤهم الذين استُدْعُوا على عجل، في زيارة للموضع الذي شهدَ المأساة، وكلّهم مقوّسو الظهور تحت السقف الصّغير الواطئ.

ـ آه! قالت أمّه، لقد توجّب عليّ مضاعفة قواي أضعافاً مضاعفةً كي أقتلع منه القطّ المهشّم الذي كان هو يحتضنه بإزاء قلبه. أؤكّد لكم أنّه لا يضمّني شخصيّاً بتلك الطريقة.

وفيما هي توضّح آثارَ الشراسة التي سوف تظهر لاحقاً في سهرات العائلات، كشراسة أسطوريّة، كان أصهب ينام ويحلم:

تجوّلَ محاذياً جدولاً، حيث تتحرك خيوط قمر فضّي لا فرار منه، وتتشابك مثل إبَرِ حائكةِ صوف.

غيماتٌ بيضٌ تغشى المروج، وربّما كانت تُخفي بعض الأشباح الخفيفة.

برهنَ لها أصهب، بيدين خلف ظهره، أنْ ليس هناك ما يجب أن تخشاه.

اقتربَ ثور، توقّف ونفخ، أسرع في الانسحاب ناشراً وقع حوافره الأربعة حتى عنان السماء ثمّ تلاشى.

يا له من هدوء، لولا ثرثرة الجدول وهمساته المزعجة التي تعادل وحدها حلقة عجائز مجتمعات.

رفع أصهب عصاه بهدوء وكأنّه يريد ضربَه لإسكاته، وإذا بسراطين عملاقة تظهر بين القصب.

زاد عددها أكثر وخرجت من الماء، مستقيمةً، برّاقة.

أحسّ أصهب بالقلق يُثقل حركته ولم يعد قادراً على الهروب.

وطوّقتْه السّراطين.

وتسلّقتْه بالغةً حلْقه.

وبدأت تطقطق.

وها هي قد فتحت كلاّباتها العظيمة.

الخِرفان

في البداية لم يلمح أصهب سوى أشكال كرويّة واثبة وغير واضحة. كانت تُصْدر أصواتاً رهيبة ومختلطة مثل أطفال يلعبون تحت سقيفة ساحة مدرسيّة. ارتمى أحدها على رجليه، فأحسّ ببعض الضيق. ووثب آخر في اتجاه المنْوَر. إنّه خروف. ابتسم أصهب من شعوره بالخوف، اعتادت عيناه العتمة تدريجيّاً، وبدأت التفاصيل تتّضح.

لقد بدأت فترة الولادات، وفي كلّ صباح يُحصي المُزارع باجول حَمَلين أو ثلاثة حملان جديدة. يجدها تائهة بين الأمّهات، خرقاء، مترنّحة على قوائمها النّحيلة: أربع قطع خشبيّة منحوتة بطريقة غير مُتْقَنة.

لا يتجرّأ أصهب على مداعبتها بعد. أمّا الحِملان فهي أجرأ منه، إذْ تقترب منه وتمصّ حذاءه، أو ترفع قائمتيها الأماميّتين على جسمه، بينما قشّة علف في أفواهها.

تسترخي الحملان الأكبر سنّاً، تلك التي مرّ أسبوع على ولادتها، بجهد بالغ من مؤخّراتها وتقفز بحركات متعرّجة في الهواء. أمّا التي لم يتجاوز عمرها يوماً واحداً فهي نحيلة جدّاً وتسقط على رُكَبها ذات الزوايا الحادّة كي تنهض مفعمةً بالحياة. هناك حمَل صغير وُلِد للتوّ، وها هو ذا يجرّ قوائمه لزِجاً ولم تلحَسْه أمّه بعد. فهي منزعجة من صفَنها المرتجّ والمملوء ماءً، وصارت تُبعدها بنطحات من رأسها.

- أمّ سيئة! قال أصهب.

- تجد لدى الحيوانات ما تجده عند البشر، قال باجول.

-لا شكّ أنها تتمنّى لو تضعه عند مرضعة.

- تقريباً، قال باجول. هنا أكثر من واحد لا بدّ من تغذيته بالرّضَّاعة، مثل تلك التي تُشْتَرى من الصيدليّة. لكن الفترة لا تطول، إذْ ينتهي الأمر بالأمّ إلى أن تعطف على وليدها. زدْ على ذلك أنّ الخرفان تصبح على هذه الشّاكلة أكثر ترويضاً.

أمسك بها من كتفيْها وعزَلها في قفص بعد أن طوّق عنقها بربطة من قشّ، كي يتعرّف عليها إذا أفلتت. تبعها الحمَل. كانت الشاة تأكل محدثةً صوت مبْرد، وصغيرها ينهض على قوائمه الهشّة مرتجفاً، ويحاول أن يرضع منها متوسّلاً وخطمه مغطّى بأثر جليد مرتعش.

- وهل تعتقد أنها ستسترجع مشاعر أكثر إنسانيّة؟ قال أصهب.

- نعم عندما تبرأ مؤخّرتها، قال باجول: لقد كانت ولادتها صعبة.

- ما زلتُ مصرّاً على فكرتي، قال أصهب. لماذا لا يتمّ وضع الصغير في عُهدة شاة أخرى مؤقّتاً؟

- سوف ترفضه، قال باجول.

وبالفعل، تقاطع ثغاء الأمّهات من جميع أطراف الزريبة، معلناً موعد الرّضاعة. وبدا ثغاؤها رتيباً عند أصهب لكنّه ذو فروق بالنسبة للحِملان الصّغيرة لأنّ كلَّ واحد منها أسرع مباشرة نحو ضرع أمّه من دون التباس.

- هنا، قال باجول، لا وجود لسارقات الأطفال.

- غريب أمر الغريزة العائلية لدى هذه الكرات الصوفيّة. كيف يُفسَّر يا ترى؟ ربّما برهافة أنوفها.

وتملّكتْه رغبة في سدّ أحدها، للتأكّد.

لجأ إلى مقارنة عميقة بين البشر والخرفان، وتمنّى معرفة الاسم الأول لكلّ حمَل.

وبينما كانت الحِملان ترضع بشراهة، كانت النّعاج الأمهات مضطجعة تأكل هادئة ولا مبالية، رغم ضربات الأنوف المفاجئة على خواصرها. لاحظ أصهب وجود بقايا سلاسل وحلقات دواليب ورفش عتيق في ماء حوض المعلف.



- كم هو نظيف حوضك! قال بنبرة رقيقة. بالتأكيد أنت تُغْنِي دماء الحيوانات بواسطة حديد الخردة!

- كلامك صحيح، قال باجول. أنتَ تفقه أغربَ الأشياء!

وعرضَ على أصهب أن يذوق الماء. فهو يرمي فيه بكلّ شيء حتى يصير مغذّياً ومقوّياً أكثر.

- هل ترغب في برغوث غنم؟ قال.

- بطيبة خاطر، قال أصهب من دون أن يفهم، مع الشكر مسبقاً.

فتّش باجول الصوف الكثيف لإحدى الأمهات والتقط بأظافره برغوثَ غنم أصفرَ، مكوّراً، سميناً، شبعانَ، ضخماً. وحسبَ باجول فإنّ اثنين من هذا الحجم يمكنهما التهام رأس طفل مثل حبّة خوخ. وضعه في باطن يد أصهب ودعاه، إن كان يريد الضحك والمتعة، أن يدسّه في عنق أخيه وأخته أو في شعرهما.

كان برغوث الغنم قد بدأ شغله وانقضّ على الجلد. أحسّ أصهب بوخْز في أصابعه، كما لو كانت تسقط عليها حبّات جليد. وسرعان ما انتقل الوخز إلى معصميْه ثمّ إلى كوعيْه. بدا البرغوث كأنه يتكاثر، ويستعدّ لقضم الذراع حتّى الكتف.

اتّخذ أصهب قراره، فضغط عليه؛ وسحقه ثمّ مسح يده على ظهر شاة من دون أن يسترعي انتباه باجول.

سوف يقول إنّه فقده.

ظلّ أصهب يُنصت متأمّلاً الثغاء الذي بدأ يهدأ بالتدريج. وبعد قليل لم يعد يُسمع سوى الحفيف المكتوم للعلف المجروش بين الفكوك البطيئة.

لاح معطف ذو خطوط باهتة، معلّقاً على أحد قضبان المعلف، كأنّه يحرس الخرفان بمفرده.

العرّاب4

أحياناً تسمح السيدة لوبيك لأصهب بزيارة عرّابه والنوم عنده أيضاً. وهو رجل مسنّ، فظّ ومتوحّد، يمضي أيامه في صيد الأسماك أو بين الكروم. لا يُحبّ أحداً ولا يطيق غير أصهب.

- جئت يا ذَكَر البطّ! قال.

- نعم، يا عرّابي، قال الأصهب من دون أن يعانقه، هل جهّزتَ لي صنّارتي؟

- تكفينا واحدة، قال العرّاب.

فتح أصهب باب المستودع ورأى صنّارته جاهزة. وهكذا فإنّ عرّابه يشاكسه دائماً، غير أنّ أصهب بات يعي ذلك ولم يعد يغضب. وهذا السلوك الذي يتوخّاه العجوز لا يكاد يعكّر علاقتهما. فهو عندما يقول نعم، يعني لا، والعكس صحيح. كلّ ما هنالك أنّ الأمر يتطلّب التمييز وعدم الوقوع في الخطأ.

- إذا كان ذلك يسلّيه، فلا مانع لديّ، يقول أصهب محدّثاً نفسه.

وهكذا ظلاّ صديقين جيّديْن.

لا يطبخ العرّاب عادةً إلا طبخة واحدة تكفيه كامل الأسبوع، وهاهو ذا يضع قدراً كبيرة من الفاصوليا مع قطعة كبيرة من الشّحم، على شرف أصهب، ويجبره على احتساء كوبٍ من الشّراب استعداداً لاستقبالِ يومٍ جديد.

بعد ذلك خرجا للصّيد.

جلس العرّاب حذو الماء معتنياً بصنّاراته في انتظام. ودعمها بأحجار كبيرة. وهو لا يصطاد إلا الأسماك الكبيرة التي يلفّها في برود منديل مبلل ويقمّطها مثل الأطفال الرّضّع.

- أكرّر لك، قال مخاطباً أصهب، لا تسحب صنّارتك إلاّ إذا غاصت الفلّينة ثلاث مرّات.

أصهب: ولماذا ثلاث مرّات تحديداً؟



العرّاب: الأولى لا تعني شيئاً: فالسمكة مازالت تقضم. والثانية، صار الوضع جدّيّاً: فهي تبلع. الثالثة، صار الأمر مؤكّداً: لن تتمكّن من الإفلات. ولا ينبغي التأخّر في سحب الصنّارة أبداً.

يُفضّل أصهب صيد سمك « الغجوم» النّهري. يخلع نعليه، يدخل إلى النّهر ويحرك قاعه الرمليّ بقدميه كي يُعكّر الماء. تخرج أسماك الغجوم الغبيّة مسرعة فيتمكّن أصهب من اصطياد واحدة مع كل رمية لصنّارته. ولم يكن الوقت ليكفيه كي يصرخ باتجاه العرّاب:

- ستّ عشرة، سبع عشرة، ثماني عشرة!...

وعندما يرى العرّاب الشمس فوق رأسه، يكون قد حان وقت العودة لتناول الغداء. فيُتْخم أصهب بالفاصوليا البيضاء.

- لا أعرف أفضل منها، قال له، لكنّني أحبّها مسلوقة. وأنا أفضّل قرضَ معول حديديّ على أكل حبّة فاصوليا تطقّ بين أسناني، وتفرقع مثل حبّة رصاص في جناح حجلة.

أصهب: هذه الفاصوليا تذوب على اللسان. عندما تطبخها أمي لا تكون سيئة عادة. ومع ذلك فهي ليست مثل هذه. تنقصها الطّراوة.

العرّاب: أنا مسرور برؤيتك تأكل يا ذكر البطّ. أراهن أنّك لا تأكل كما تريد، عند أمّك.

أصهب: كلّ شيء يتوقّف على شهيّتها. إذا كانت جائعة، آكل حتّى شَبَعها. وعندما تضع الأكل لنفسها، تضع لي أنا أيضاً. وإذا انتهتْ من الأكل، أكون أنا أيضاً قد انتهيت منه.

العرّاب: يمكنك طلب المزيد مجدّداً.

أصهب: من السّهل قول ذلك يا عزيزي. زدْ على ذلك أنّه من الأفضل المحافظة على قليل من الجوع.

العرّاب: وأنا الذي ليس لديّ أبناء مستعدّ للتفاني في مُداراةِ قردٍ، لو كان هذا القرد ابني! يا له من وضْع!

وأنهيَا يومهما بين كروم العنب حيث كان أصهب يتفرّج تارةً على عرّابه يعزق الأرض فيقتفي أثره خطوة خطوة، أو يتمدّد طوراً على حزمة عيدان من سُروع الكروم، ويتسلّى بمصّ أعواد صفصاف وعيناه تحملقان في السماء.

الينبوع

لا ينام عندَ عرّابه حبّاً في النوم. وحتّى إذا كانت الغرفة باردة، فإنّ فراش الريش دافئ جدّاً، ناعمٌ بالنسبة لأعضاء العرّاب المسنّ، ويجعل ابنه الروّحيّ يتعرّق بسرعة. المهمّ أنه ينام بعيداً عن أمّه.

- إذن فهي تُخيفك كثيراً؟ قال العرّاب.

أصهب: أو ربّما كنتُ أنا الذي لا أخيفها بما فيه الكفاية. عندما ترغب في تأديب أخي، يُسرع إلى مقبض مكنسة وينتصب أمامها، وأقسم لك أنّها تتوقّف فوراً. ولذا فهي تفضّل استثارة مشاعره. وهي تقول إنّ الضربات تلائم طبعي أكثر ممّا تلائم طبع فيليكس، المرهف الإحساس.

العرّاب: ينبغي أن تجرّب المكنسة.

أصهب: أوه، لو تجرّأتُ على ذلك! لطالما تشاجرنا أنا وفيليكس، حقيقةً أو على سبيل اللّعب. فأنا لي مثْل قوّته، وأنا قادر على الدفاع عن نفسي مثله. ولكن لو تسلّحت بمكنسة ضدّ أمّي، لاعتقدتْ أنني أجلب لها المكنسة. ولسقطت من يديَّ في يديْها، وربّما قالت لي شكراً، قبل الشروع في ضربي.

العرّاب: نَمْ يا ذكر البطّ، نمْ!

لا أحد منهما يتوصّل إلى النوم. أصهب يتقلّب ويختنق ويبحث عن الهواء، وعرّابه العجوز يُشفق على وضعه.

فجأة، وعندما بدأ أصهب ينعس، أمسك العرّاب بذراعه.

- هل أنت هنا، يا ذكر البطّ؟ قال. كنتُ أحلم، ظننت أنك مازلت في النّبع. أمّا زلتَ تذكر النبع؟

أصهب: أتذكّره كأنّي واقف أمامه، يا عرّابي. وأنا لا ألومك على شيء، لكنّك تحدّثني عنه كثيراً.

العرّاب: يا عزيزي ذكر البطّ، كلّما فكّرت فيه ارتعدَ جسمي كلُّه. لقد نمتُ على العشب. كنتَ تلعب بجوار النبع، تزحلقْتَ، سقطتَ، وشرعتَ تصرخ وتتخبّط، وأنا البائس لا أسمع شيئاً. لم يكن فيه ما يكفي من الماء لإغراق قطّة. لكنّك لم تستطع النهوض. هنا تكمن المصيبة، ألَمْ تعد تفكّر في النهوض؟

أصهب: وهل تظنّني أتذكّر ما كنت أفكّر فيه عند النّبع؟

العرّاب: وفي النهاية أيقظني تخبُّطك. لقد آن الأوان. يا لَذَكَر البطّ المسكين! يا لذكر البطّ المسكين! كنتَ تتقيّأ مثل مضخّة. وبعد ذلك تمّ تغيير ملابسك، وأُلْبِسْتَ بدلة الآحاد التي تعود للطفل برنار.

أصهب: نعم، كانت تخِزُني. وكنت أحكّ جسمي. فهل كانت بذلة من الشَّعر؟



العرّاب: كلاّ، لكنّ الصغير برنار لم يكن لديه قميص نظيف يعيرك إيّاه. أنا أضحك اليوم، والحال أنّ مرور دقيقة واحدة إضافيّة حينها، بل ثانية واحدة، ربّما أدّى بي إلى رفعك ميتاً.

أصهب: وهكذا أكون بعيداً الآن.

العرّاب: أسكتْ. لقد تفوّهتُ عن ذلك كلّه بحماقات، ومن وقتها لم أتمكّن من النوم الهانئ. هرب النعاس، هذا عقابي، وأنا أستحقّه.

أصهب: أمّا أنا فلا أستحقّه، يا عرابي، وأرغب في النوم حقّاً.

العرّاب: نَمْ يا ذكر البطّ، نمْ!

أصهب: إنْ كنت تريدني أن أنام، يا عرّابي العزيز، فعليك أن تترك يدي. وسوف أعيدها إليك بعد نومي. واسحبْ ساقك أيضاً، شعرها مزعج. يستحيل عليّ النوم عندما يلمسني أحدهم.

الخوْخ

ظلاًّ يتحرّكان بعض الوقت ويتقلّبان على فراش الريش، ثمّ قال العرّاب:

- هل نمتَ يا ذكر البطّ؟

أصهب: كلاّ، يا عرّاب.

العرّاب: أنا أيضاً لم أتمكّن من النوم. أرغب في النهوض. إنْ شئتَ نذهب للبحث عن الديدان.

- فكرة، قال أصهب.

وثبَا من السّرير، ارتديَا ثيابهما، أشعلا فانوساً، وقصدَا الحديقة.

حمل أصهب الفانوس، وحمل العرّاب علبة من الصفيح نصفها مملوء بتراب مبلَّل ليحفظ فيها مؤونة من دود الصيد. وغطّى الديدان بطحلب رطب حتّى تكفيه لمدّة طويلة. والمحصول يكون وفيراً عادةً عندما يهطل المطر كامل النّهار.

- انتبهْ حتّى لا تدهسها بقدميك، قال لأصهب، سرْ بهدوء. لولا خوفي من نزلات البرد لاكتفيت بارتداء خُفّ. مع أقلّ ضجيج تدخل الدودة إلى جحرها. ولا يمكن الإمساك بها إلاّ إذا ابتعدت كثيراً عن بيتها. ينبغي التقاطها بغتة، والضغط عليها قليلاً حتّى لا تنزلق. إذا كان نصْفها ظاهراً، اتْرُكْها: لأنك سوف تهشّمها. والدودة المشطورة لا تساوي شيئاً. فهي تُعفّن الديدان الأخرى، والأسماك الرقيقة تزدريها. هناك الكثير من الصيّادين الذين يقتصدون في ديدانهم؛ وهذا خطأ. لا

يمكن صيد أسماك جميلة إلاّ بديدان كاملة، حيّة، تتلوّى في قاع الماء. تراها السمكة فتظنّها هاربة وتسرع إليها لتلتهمها بلا تردّد.

- أكاد أفشل في الإمساك بها دائماً، همس أصهب، وأصابعي ملطّخة بلعابها القذر.

العرّاب: الدودة ليست قذرة. الدودة هي أنظف ما في العالم. لا تتغذّى إلاّ من التراب، وإذا سُحِقتْ لا يخرج منها إلاّ التراب. أنا شخصيّاً مستعدّ لأكلها.



أصهب: أمّا أنا فمستعدّ للتخلّي عن التي معي. هيّا كُلْها إذنْ.

العرّاب: هذه الديدان سمينة كثيراً. لا بدّ من شيّها أوّلاً، ثمّ بسطها على قطعة خبز. لكنني آكل الديدان الصغيرة نيئة، مثل ديدان الخوخ على سبيل المثال.

أصهب: نعم، أعرف. وعائلتي تتقزّز منك، ولا سيّما أمّي، ما إنْ تفكّر فيك حتّى يؤلمها قلبها. أمّا أنا فأؤيدك من دون أن أقلّدك، لأنك لست صعب الطباع ونحن نتفاهم جيّداً.

رفع فانوسه، سحب غصن خوخ، وقطف بعض الحبّات. احتفظ بالثمار الجيّدة، وقدّم المتعفّنة للعرّاب الذي قال وهو يلتهمها دفعة واحدة، بما فيها من نوى ومن دون أن يفتحها:

- هذه الحبّات هي الأفضل.

أصهب: أوه! سوف ينتهي بي المطاف إلى فعل ذلك والأكل منها مثلك. كلّ ما أخشاه أن تصير لي رائحة سيّئة وتكتشف أمّي ذلك إذا قبّلتني.

- لن تبقى منها أية رائحة يا بنيّ، قال العرّاب، ونفخ في وجه أصهب.

أصهب: صحيح. لا تصدر منك إلاّ رائحة التبغ. وهي تملأ الأنف حقّاً. أنا أحبّك كثيراً، يا عرّابي العزيز، لكنْ يمكنني أن أُحبَّك أكثر من كلّ الآخرين، لو لم تكن تدخّن الغليون.

العرّاب: ذكَر البط! يا ذكَر البط! إنّ تبغ الغليون يحافظ على الصحّة.

ماتيلد

- اعلمي، يا أمّي، قالت إرنستين وهي تلهث، مخاطبةً السيّدة لوبيك، أنّ أصهب ما زال يلعب لعبة الزوج والزوجة مع ماتيلد في المرج. والأخ الأكبر فيليكس يُلبسهما الثياب. مع أنّ ذلك ممنوع، حسب علمي.

وبالفعل، ففي المرج، كانت ماتيلد الصغيرة تلوح متصلّبة بلا حراك، مزيّنة بالياسمين البرّي ذي الأوراق البيضاء. فتبدو، وهي مجمّلة بكاملها، خطيبة حقيقيّة مزيّنة بزهور البرتقال، ومزوّدة منها بما يقيها من المغص طيلة الحياة.



لقد ظُفِرَ الياسمين البرّي في البداية على شكل تاج يعلو الرأس، لينزل فيما بعد متموّجاً تحت الذقن وخلف الظهر وعلى امتداد الذراعيْن، ملتفّاً بزينته على الجسم كلّه ليشكّل في النهاية ذيلاً منساباً على الأرض لا يكفّ الأخ الأكبر فيليكس عن إطالته.

تراجع إلى الخلف وقال:

ـ لا تتحرّكي أبداً! والآن، حان دورك يا أصهب.

وأُلْبِس أصهب بدوره بدلة العريس الشاب مع الياسمين البرّيّ الذي تتفتّح فيه، هنا وهناك، زهور خشخاش وزعرور وهندباء صفراء، حتى يتمّ تمييزه عن ماتيلد. هو لا يرغب في الضحك،

وثلاثتهم يحافظون على الجدّية، ويعرفون الطقوس المناسبة لكلّ احتفاليّة. وهكذا فإنّ طقوس الدّفن تتطلّب المحافظة على الحزن من البداية إلى النهاية، والزواج يتطلّب الرّصانة والجدّيّة حتى موعد القُدّاس، وإذا لم يتمّ الالتزام بذلك تفقد اللعبة متعتها.

- كلّ واحد يمسك بيد الآخر، قال الأخ الأكبر فيليكس. تقدّمَا! بتمهّل.

تقدّمَا خطوةً خطوةً، متباعديْن. وعندما تتعرقل ماتيلد تشمّر رَفْلَها وتمسك به بين يديها بينما ينتظرها أصهب بلطف وإحدى ساقيه مرفوعة.

ساقهما الأخ الأكبر فيليكس عبر المرج. كان يمشي متقهقراً إلى الخلف وذراعاه بمثابة ميزان يدلّهما على الإيقاع. مثّل دور العُمدة وحيّاهما، ثمّ دور الكاهن وباركهما، ثمّ دور الصديق وهنّأهما، وأخيراً دور عازف الكمان وحكّ عصاً بعَصَا.

وظلّ يتجوّل بهما بالطول وبالعرض.

- توقَّفا! قال، هناك خلل.

لكنه لم يستغرق سوى الوقت الذي ملّس فيه تاج ماتيلد بضربة من يده ثمّ حرّك الموكب من جديد.

- آي! قالت ماتيلد وهي تقطّب وجهها.

كان هناك عود ياسمين برّي يسحب شعرها. نزعه الأخ الأكبر فيليكس. وتواصل الموكب.

- تمام، قال، أنتما الآن متزوّجان، عبِّرَا عن فرحكما.

وأمام تردُّدهما:

- هيّا! ماذا! عبِّرَا عن فرحكما. من يتزوّج يعبّر عن فرحه. تبادلا الغزَل والبوح. تبدُوان كأنّكما عروسان من رصاص.

كان يشعر بتفوّقه عليهما ويسخر من عدم أهليّتهما للزواج، وهو الذي ربّما سبق له البوح بعبارات الحبّ. لذلك أراد أن يكون قُدْوةً لهما فبادر إلى مداعبة ماتيلد.

استبسل أصهب، بحث بين أزهار النبتة المعترشة عن وجه ماتيلد وقبّلها على خدّها.

- أنا لا أمزح، قال، أنا مستعدّ للزواج منك.

ومثلما تلقّت ماتيلد قُبْلتَه فقدْ بادلتْه إياها. وسرعان ما احمرّ كلاهما خجلاً في تردّد وارتباك.

رفع الأخ الأكبر فيليكس إصبعين مقلِّداً قرنيْن للسخرية.

- يا للخجل! يا للخجل!

فرك إصبعاً بإصبع ورفس الأرض بقدميه واللّعاب يملأ شفتيْه.

- هل هما غبيّان! يظنّان أنّ ذلك حصل حقّاً!

- أوّلاً، قال أصهب، أنا لا أحمرُّ خجلاً، وثانياً، تستطيع الضحك كما تشاء، فلستَ أنت من سيمنعني من الزواج بماتيلد إذا كانت أمّي موافقة.

لكنْ، هاهي الماما قد جاءت لتجيب بنفسها بأنها لا ترغب في ذلك. دفعت باب سياج المرج ودخلت تتبعها إرنستين الواشية. وعندما اقتربت من السياج كسّرت غصناً مرناً فنزعت أوراقه وتركت أشواكه.

تقدّمت رأساً، محتومةً مثل العاصفة.

- حذار من الضرب، قال الأخ الأكبر فيليكس.

وهرب راكضاً نحو آخر المرج. وصار في مأمن ويمكنه التّفرّج.

أمّا أصهب فهو لا يهرب أبداً. ومع أنّه جبان، فهو في العادة يريد انتهاء الأمر بسرعة، وها هو ذا اليوم يشعر بالشجاعة.

وفي الأثناء كانت ماتيلد تبكي مرتجفةً مثل أرملة، معَ فُواقٍ لا يفارقها.

أصهب: لا تخشيْ شيئاً. أنا أعرف أمّي جيّداً، ليست مغتاظة إلا منّي. سوف أتلقّى أنا كلّ الضرب.

ماتيلد: نعم، لكنّ أمّك سوف تحكي لأمّي، فتضربني بدورها.

أصهب: تؤدّبك؛ يُقال تأديب، لإصلاح الخطأ كما في الفروض المدرسية. هل تقوم أمّك بتأديبك وإصلاحك؟

ماتيلد: أحياناً وحسب الظروف.

أصهب: بالنسبة لي هذا مؤكّد دائماً.

ماتيلد: لكنني لم أفعل شيئاً.

أصهب: ما من مشكلة. انتبهي!

السيّدة لوبيك تقترب. ستمسك بهما. لديها متّسع من الوقت. خفّفت من سرعتها. صارت من القرب بحيث أنّ الأخت إرنستين، خوفاً من تلقّي ضرباتٍ طائشةٍ، توقّفت عند طرف الدائرة التي ستتركّز فيها الأحداث. استقرّ أصهب أمام «زوجته» التي صارت تنتحب بصوت أعلى. اختلطت أزهار الياسمين البرّي البيضاء. ارتفع قضيب السيدة لوبيك متأهّباً للجَلْد. شبك أصهب ذراعيه، وبرقبة متقلّصة، ونار في الأحشاء، وساقين تخونانه مسبقاً، كانت له الجرأة للصراخ بكبرياء:

- وما الضّرر في ذلك؟ المهمّ أن نتسلّى!

الخزْنة

في الغد، لما التقى أصهب ماتيلد، قالت له:

- جاءت أمّك ووشت بكل شيء إلى أمّي، وتلقيّتُ ضرباً على ردفي. وأنت؟

أصهب: أنا لم أعد أذكر شيئاً. لكنك لا تستحقّين الضرب، لم نقم بأيّ شيء سيّئ.

ماتيلد: بالتأكيد، لا.

أصهب: أؤكّد لك أنني كنت مُجِدّاً عندما قلت لك إنني مستعدّ للزواج منك.

ماتيلد: أنا أيضاً مستعدّة للزواج منك.

أصهب: يمكنني احتقارك لأنك فقيرة وأنا غنيّ، لكنْ لا تخافي، أنا أقدّرك.

ماتيلد: ما مقدار ثروتكم يا أصهب؟

أصهب: يملك أهلي مليوناً على الأقلّ.

ماتيلد: وكم يساوي المليون؟

أصهب: يساوي الكثير؛ أصحاب الملايين لا يتوصّلون أبداً إلى إنفاق كلّ أموالهم.

ماتيلد: كثيراً ما يشتكي أهلي من انعدام المال عندهم.

أصهب: أوه! حتّى أهلي يشتكون أيضاً. كلّ واحد يتذمّر حتّى يُشفق عليه الآخرون ويُبعد الحسّاد. لكنّني أعرف أنّنا أغنياء. في اليوم الأول من كلّ شهر يختلي والدي بنفسه في غرفته لفترة.

وأسمع صرير قفل الخزْنة. صريره يشبه نقيق ضفادع الشجر ليلاً. ينطق أبي بكلمة لا يعرفها أحد، لا أمّي، ولا أخي، ولا أختي، لا أحد ما عدانا أنا وهو، فينفتح باب الخزنة. يتناول منها أبي بعض المال ويذهب ليضعه على مائدة المطبخ. ولا يقول شيئاً، فقط يخشخش القطع النقديّة لتصدر رنيناً فتسمعه أمّي المشغولة قرب الفرن. يخرج أبي. تلتفت أمّي وتتناول المال بسرعة. كلّ شهر تجري الأحداث بهذه الطريقة، وقد مرّ عليها زمن طويل، وفي هذا برهان على وجود أكثر من مليون في الخزنة.

ماتيلد: ولكي يفتحها ينطق بكلمة؛ ما هي الكلمة؟

أصهب: لا تبحثي عنها، ستتعبين من دون جدوى. سوف أُطلعك عليها عندما نتزوّج بشرط أن تَعِديني بعدم كشفها لأحد.

ماتيلد: قلْها لي فوراً. أعِدُك الآن بألا أفشيها.

أصهب: كلاّ، هذا سرّ مشترك بيني وبين أبي.

ماتيلد: أنت لا تعرف الكلمة. لو كنتَ تعرفها لقلتها لي.

أصهب: عفواً، أنا أعرفها.

ماتيلد: لا تعرفها، لا تعرفها. يا لخسارتك! يا لخسارتك!

- هل تراهنين على ذلك؟ قال أصهب بنبرة جادّة.

- أراهن على ماذا؟ قالت ماتيلد متردّدةً.

- دعيني ألمسك حيث أريد، قال أصهب، وسوف تعرفين الكلمة.

نظرت ماتيلد إلى أصهب. لم تفهم جيّداً. أغمضت عينيها الرماديّتين شبْه الماكرتين، وقد بات لديها لغزان يثيران فضولها، وليس واحداً فقط.

- قُلْ الكلمة أوّلاً، يا أصهب.

أصهب: حتّى تقسمي لي بأنّك ستتركينني ألامسك حيث أريد بعد ذلك.

ماتيلد: أمّي منعتني من القَسَم.



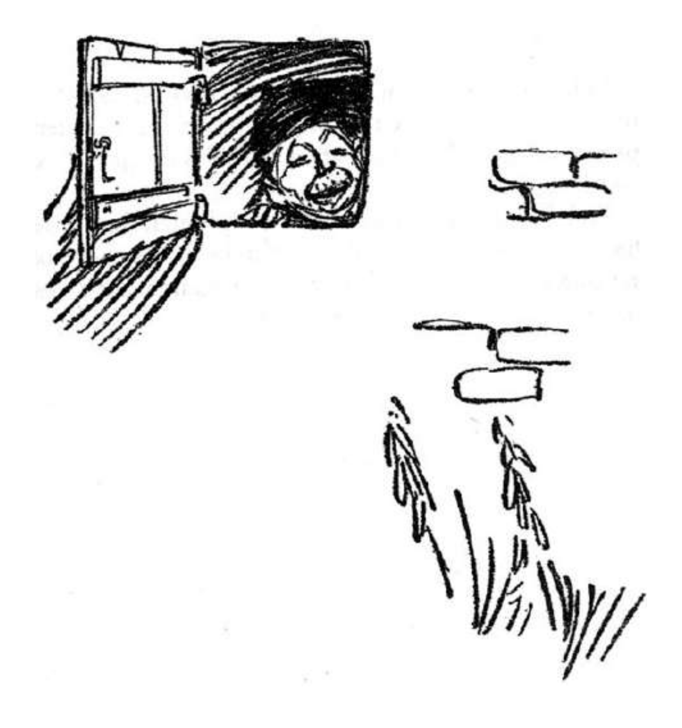
أصهب: إذن لن تعرفي الكلمة.

ماتيلد: لا تهمّني كلمتك. لقد حزرتُها، نعم حزرتُها.

عيل صبر أصهب فاستعجلَ الأمر.

- اسمعي، يا ماتيلد، أنت لم تحزري شيئاً. وأنا أكتفي بوعد منك. الكلمة التي ينطقها أبي قبل فتح خزنته هي « لوستوكرو»، كلمة لا تعني شيئاً. والآن أستطيع لمس ما أريد.

- لوستوكرو! لوستوكرو!، قالت ماتيلد وهي تتراجع إلى الخلف مسرورة بمعرفة سرّ وخائفة من أن يكون غير ذي قيمة.



ألا تستهزئ بي حقّاً؟

ولمّا بدأ أصهب يتقدّم مصرّاً من دون أن يجيبها ويده ممدودة، هربت. وسمعها أصهب تضحك ساخرة.

وما إن اختفت حتّى سمع من يضحك هازئاً خلفه.

التفت. كان هناك خادم قصر يطلّ برأسه من منْوَر إسطبل ويكشّر عن أسنانه.

- لقد رأيتك، يا أصهب، صاح الخادم، سوف أخبر أمّك بكلّ شيء.

أصهب: كنت ألعب، يا عزيزي بيير. كنت أرغب في الإمساك بالصغيرة. أمّا لوستوكرو فهو اسم مزيّف اختلقته بنفسي. وأنا لا أعرف الكلمة الحقيقيّة أصلاً.

بيير: اطمئن يا أصهب، لا يهمني لوستوكرو، ولن أخبر أمّك به. لكنني سوف أخبرها بما تبقّى.

أصهب: ما تبقّى؟

بيير: نعم بما تبقّى. لقد رأيتك، لقد رأيتك، يا أصهب؛ هل تستطيع الادّعاء أنني لم أرَكَ؟ آه! أنت متقدّم على عُمرك. غير أنّ هناك مفاجأة تنتظرك هذا المساء!

لم يجد أصهب ما يردّ به. احمرّ وجهه حتى بدا لون شعره الطبيعيّ كأنه يبهت، ابتعد ويداه في جيبيه، ينخر بأنفه، وخطواته مضطربة.

يرَقات الضّفادع

كان أصهب يلعب في الباحة، في وسطها تماماً، حتى تتمكّن السيدة لوبيك من مراقبته عبر النافذة. وفيما كان يدرّب نفسه على اللّعب كما ينبغي، لاح رفيقه ريمي. وهو فتى في سنّه، يعرج ويحبّ الركض دائماً بطريقة تجعل ساقه اليسرى المعاقة تتجرجر خلف الأخرى ولا تلتحق بها أبداً.

جلب سلّة وقال:

ـ هل تأتي يا أصهب؟ سيلقي أبي بشبكة القنّب في النهر. سوف نساعده ونصطاد يرقات الضفادع بواسطة السِّلال.

ـ اطلُبْ ذلك من أمّي، قال أصهب.

ريمي: ولماذا أطلب أنا؟

أصهب: لأنّها لن توافق إذا طلبتُ منها أنا.

في هذه اللحظة بالضبط ظهرت السيدة لوبيك من النافذة.

ـ سيّدتي، قال ريمي، من فضلك، هل تسمحين لي باصطحاب أصهب لصيد يرقات الضفادع؟

ألصقت السيدة لوبيك، أذنها بزجاج النافذة. كرّر ريمي الطلب صارخاً. فهمت السيدة لوبيك ما يريد. وقد شوهدت تُحرِّك شفتيْها. لم يسمع الصديقان شيئاً ونظرَا إلى بعضهما في تردُّد. غير أنّ السيدة لوبيك حرّكت رأسها وأشارت صراحةً إلى أنها غير موافقة.

- لا تريد ذلك، قال أصهب، لا شكّ أنها ستحتاج لي بعد قليل.

ريمي: يا للأسف، كنّا سنتسلّى كثيراً. هي لا تريد، لا تريد.

أصهب: اِبقَ. سوف نلعب هنا.

ريمي: عجباً، لا أصدّق. أنا أفضّل صيد اليرقات. والطقس جميل. سوف أملأ منها الكثير من السلال.

أصهب: انتظرْ قليلاً. أمّي ترفض دائماً في البداية. وأحياناً تغيّر رأيها فيما بعد.

ريمي: سأنتظر قرابة ربع ساعة وليس أكثر.

مكثا هناك ينتظران وأيديهما في جيوبهما. ظلاَّ يراقبان السّلَّم بمكر، وسرعان ما دفع أصهب صديقه ريمي بكوعه.

- ماذا قلتُ لك؟

وبالفعل انفتح الباب ونزلت السيدة لوبيك درجة واحدة من السُّلّم وفي يدها سلّة لأصهب. لكنّها وقفت مرتابةً.

- ما زلت هنا ياريمي! ظننتكَ غادرتَ. سوف أُخبر والدك باستهتارك وسوف يعاقبك.

ريمي: سيّدتي، أصهب هو الذي طلب منّي أن أنتظر.

السيدة لوبيك: آه! هل هذا صحيح، يا أصهب؟

لم يؤكّد أصهب ولم ينفِ. لم يعد يعرف. وهو يعرف السيدة لوبيك عن ظهر قلب. ولقد خمّن موقفها مرّة أخرى. لكنْ، نظراً إلى أنّ هذا الأحمق ريمي يشوّش الأشياء ويُفسد كلَّ مبادرةٍ، فقد قرّر أصهب عدم الاكتراث بالخاتمة. سحق العشب بقدميه ونظر إلى البعيد.

- هذا مع أنّ التراجع ليس من طبيعتي، قالت السيدة لوبيك.

ولم تضفْ شيئاً.



عادت إلى صعود السلُّم. وأرجعت السلّة التي كان سيحملها أصهب لصيد يرقات الضفادع، رغم أنها كانت قد أفرغتها من الجوْز الطازج عمداً.

لقد ابتعد ريمي الآن.

السيدة لوبيك لا تعرف المزح أبداً، وحتّى أطفال الآخرين لا يقتربون منها إلاّ بحذر ويخافونها مثل معلّم المدرسة تقريباً.

فرّ ريمي إلى هناك، صوب النّهر. ركض بسرعة إلى درجة أنّ ساقه اليسرى، المتأخّرة دائماً، لاحت تشقّ غبار الطريق، وترقص وتضجّ مثل طنجرةٍ وراءه.

خسر أصهب يومه ولم يحاول العودة إلى اللعب.

لقد فاتَتْه فرصة جميلة.

وها قد بدأ يغزوه النّدم.

وهو الآن في انتظاره.

مكث وحيداً؛ بلا دفاع، فاسحاً في المجال لمجيء السأم، وحلول العقاب من تلقاء نفسه.

الانعطاف المفاجئ

المشهد الأول

السيّدة لوبيك: إلى أين أنت ذاهب؟

أصهب، وقد وضع ربطة عنقه الجديدة وبلّل حذاءه بلعابه لتنظيفه: سأرافق أبي للنزهة.

السيّدة لوبيك: أمنعك من الذهاب، هل سمعت؟ وإلاّ... سحبت يدها إلى الخلف كي تأخذ مداها مهدِّدة.

أصهب، بصوت خفيض: مفهوم.



المشهد الثاني

أصهب، متأمّلاً قرب ساعة الحائط:

-ماذا أريد أنا؟ أريد تفادي الصّفعات. وأبي يصفعني أقلّ من أمّي. لقد حسبت ذلك. فلأُخالِفْه هو!

المشهد الثالث

السيّد لوبيك، يحبّ أصهب، لكنّه لا يهتمّ به أبداً، ويقضي وقته دائماً في التنقّل من أجل أعماله:

- هيّا بنا نذهب!

أصهب: كلاّ، يا أبي.

السيّد لوبيك: ماذا؟ ألا تريد الذهاب؟

أصهب: بلى! لكنّني لا أستطيع.

السيّد لوبيك: أوضحْ ما تريد. ماذا هناك؟

أصهب: لا شيء، لكنّني سأبقى.

السيّد لوبيك: آه، نعم! هي نزوة جديدة من نزواتك. تبدو مثل حيوان صغير! لا نعرف من أيّ أذن نمسك بك. تريد ولا تريد. ابقَ يا صديقي، وتباكَ كما شئت.

المشهد الرابع

السيّدة لوبيك، لها دائماً عادتها الحذرة في التنصّت على الأبواب كي تسمع جيّداً.

عزيزي المسكين! تدخل يدها في شعره، وتسحبه، مداعبةً. ها هي ذي دموعه تنهمر، لأنّ أباه... تنظر إلى السيّد لوبيك من أسفل... يريد اصطحابه رغماً عنه. ليس من شأن أمّك أنْ تعذّبك بهذه القسوة.



كلٌّ من السيّد لوبيك الأب والسيّدة لوبيك الأمّ يشيح بظهره للآخر.

المشهد الخامس

أصهب، داخل خزانة. في فمه إصبعان؛ وفي أنفه إصبع واحدة:

- لا يمكن للجميع أنْ يكونوا يتامى.

رحلة الصّيد

من عادة السيّد لوبيك أن يصطحب ابنيْه للصيد بالتّناوب. فيسيران خلفه، إلى يمينه قليلاً، بسبب اتجاه البندقيّة، ويحملان كيس الصّيد. والسيّد لوبيك مشّاء لا يكلّ. لذلك يعاند أصهب بشغف كي يتبعه من دون شكوى. يُصيبه حذاؤه بجروح ولا ينبس ببنت شفة، وتلتوي أصابعه؛ وتتورّم أطرافها حتى تصير أشبه بمطارق صغيرة.

عندما يصطاد السيّد لوبيك أرنباً برّيّاً في بداية رحلة الصيد، يقول:

ـ ما رأيك لو تتركه في أقرب مزرعة أو تُخفيه في إحدى الأجمات، ونستعيده لدى العودة مساء؟

ـ كلا، يا أبي، يقول أصهب، أفضّل الاحتفاظ به.

ويحدث أن يحمل طيلة نهار كامل أرنبيْن وخمس حجلات. يدسّ يده أو منديله تحت سيور كيس الصيد كي يريح كتفه الموجعة. وعندما يلوح أحدهم في سبيله، يُظهر له ظهره عمداً وينسى الثّقل لحظات.

لكنّه يتعب، خصوصاً عندما لا يتمّ صيد أيّ شيء، ويكفّ التفاخر عن دعمه.

ـ انتظرني هنا، يقول السيّد لوبيك، أحياناً. سأستكشف هذه الأرض المحروثة.

يتوقّف أصهب حانقاً تحت الشمس. ويراقب أباه وهو يستكشف الحقل ثلماً تلو ثلمٍ، ومدرةً إثر مدرةٍ، يدوسه، يمهّده كما لو بمشط مسنّن، ويعمد ببندقيّته إلى ضرب الأجمات والنباتات الملتفّة

والأشواك، بينما يأتي التعب على الكلب بيرام، فيبحث عن الظلّ، ويقعي قليلاً، لاهثاً ولسانه خارج فمه.

- لكنْ، لا شيء هناك، يفكّر أصهب. نعم، اضربْ، هشّم القرّاص، حشّ الكلأ. لو كنتُ أنا أرنباً مختبئاً في تجويف خندق، تحت الأوراق، لامتنعت عن الحركة بسبب هذه الحرارة!

ويلعن السيّد لوبيك سرّاً؛ ويوجّه إليه شتائم خافتة.

ويقفز السيّد لوبيك فوق سياج آخر كي يثير الطرائد في معشبة أخرى، يمكن أن يُصيبه الذهول هذه المرّة إذا لم يجد فيها أحد الأرانب.

- أمرني بانتظاره، همس أصهب، والآن يتوجّب عليَّ الركض وراءه. نهار يبدأ بداية سيّئة سينتهي سيّئاً حتماً. اقفزْ وانضحْ عرقاً، يا أبي، أَرهِق الكلب، زِدْ في آلام ظهري، لا جدوى من كلّ ذلك، كأننا كنّا مكتفين بالجلوس. سوف نعود خائبين هذا المساء.

ذلك أنّ أصهب متطيّر بسذاجة.

في كلّ مرّة يمسك حافة قُبَّعته، يتوقّف بيرام منتفش الشعر، متصلّب الذيل. يتقدّم السيّد لوبيك على أصابع قدميه إلى أقرب ما يسعه ذلك، وأخمص البندقية تحت إبطه. يمتنع أصهب عن الحركة، وتتملّكه موجة انفعالاتٍ تكاد تخنقه.

يرفع قُبّعته.

يطير حجل، أو ينطلق أرنب بريّ. وتتوقّف النتيجة على حركات أصهب: فإذا ترك قبّعته تسقط أو قلّد طريقة التحيّة بالقبّعة، يكون السيّد لوبيك قد أخطأ الهدف أو أصابه.

ويعترف أصهب بأنّ هذه الطريقة ليست معصومة من الخطأ. فالحركة التي تُكَرَّر أكثر ممّا يجب لا تأتي دائماً بنتيجة، كما لو كان الحظّ يتعب من الاستجابة للإشارات نفسها. لذلك يجعل أصهب بينها فاصلاً زمنيّاً، خفيةً، ومع توافر هذا الشرط، تنجح العمليّة دائما، تقريباً.



ـ هل رأيت الرقبة؟ سأله السيّد لوبيك وهو يتفحّص أرنباً ما زال دافئاً، ويضغط على بطنه الأشقر ليخلّصه من بقاياه وضروراته الطبيعيّة. لمَ تضحك؟

ـ لأنّك قتلته بفضلي، قال أصهب.

ولشعوره بالفخر إزاء هذا النجاح الجديد، فقد قدّم عرضاً مفصّلاً لطريقته السرّيّة.

ـ هل تتكلّم جادًّا؟ قال السيّد لوبيك.

أصهب: يا إلهي! لن أدّعي العصمة من الخطأ.

السيّد لوبيك: من الأفضل أن تسكت فوراً، أيها الأبله. إذا رغبت في المحافظة على صيت حسن كفتى يتحلّى بالنباهة، لا أنصحك بالتلفّظ بمثل هذه الأكاذيب أمام الغرباء، حتى لا يسخروا منك. إلاّ إذا كنت تسخر من والدك الآن.

أصهب: أقسم لك بأنني لا أسخر منك يا أبي، أنت محقّ، سامحني، لست إلا فتى ساذجاً.

الذبابة

تواصلت رحلة الصيد، وتابع أصهب اقتفاء أثر والده رافعاً كتفيه ندماً على موقفه الأبله، لكنّه ازداد حماسة في تتبّع خطوات أبيه ووضْع قدمه اليسرى بالضبط في الموضع الذي يضع فيه السيّد لوبيك قدمه اليسرى، وكان يباعد بين ساقيه كأنه هارب من غول. ولا يتوقّف إلا من أجل التقاط حبّة توت أو إجاصة برّيّة أو برقوق شائك يضرّس الأسنان ويُبيّض الشفتيْن ويُهدّئ العطش. زدْ على ذلك أنه يحمل في أحد جيوب كيس الصيد قارورة من ماء الحياة. لقد شربها كلها تقريباً، جرعة تلو جرعة، لأنّ السيّد لوبيك الذي أثمله الصيد نسيَ أن يطلب احتساء القليل منها.

- هل تحتسي قطرة، يا أبي؟

ولم تأتِ الرّيح إلاّ بحفيف رفضه. فابتلع أصهب القطرة التي كان يقدّمها، وأفرغ القارورة، ثمّ التحق بوالده بدوار في الرأس. توقّف فجأة، وأدخل إصبعاً في ثقب أذنه، وحرّكها بقوة، ثمّ سحبها، وتظاهر بالإنصات، وصاح مخاطباً السيّد لوبيك:

- هل تعلم، يا أبي، أظنّ أنّ هناك ذبابة في أذني.

السيّد لوبيك: أخرجْها، يا بني.

أصهب: تقدّمتْ كثيراً، وأنا لا أتمكّن من الإمساك بها. أسمعها تطنّ.

السيّد لوبيك: أتْرُكْها حتى تموت من تلقاء نفسها.

أصهب: لكن ماذا لو باضت يا أبي وبنتْ عشّاً؟

السيّد لوبيك: حاول قتلها بزاوية من المنديل.

أصهب: ماذا لو سكبتُ عليها القليل من ماء الحياة لإغراقها؟ هل تسمح لي بذلك؟

- اسكبْ ما تشاء، صاح السيّد لوبيك. لكنْ عليك أن تُسرع.

وضع أصهب عنق القارورة على أذنه، وأفرغها مرّة أخرى، احتياطاً لاحتمال مطالبة السيّد لوبيك بنصيبه.

وسرعان ما هتف أصهب مبتهجاً وهو يركض:



- هل تعلم، يا أبي، لم أعد أسمع الذبابة. لا شكّ أنها ماتت. لكنّها شربت القارورة كلّها.

دجاجة الأرض الأولى

ابقَ هنا، قال السيّد لوبيك. هذا أفضل مكان. سأتجوّل في الغابة مع الكلب؛ وسوف نتولّى إثارة دجاج الأرض، وعندما تسمع: بِيتْ، بيتْ، شنِّفْ أذنيْك وافتحْ عينيك. سوف يمرّ دجاج الأرض فوق رأسك.

أمسك أصهب بالبندقيّة ممدودة بين ذراعيه. وهذه أوّل مرّة سيتولّى فيها قنص دجاجة أرض. لقد سبق له أن قتلَ سُمّانة، ونتفَ ريش حجلة، كما أخطأ في إصابة أرنب بريّ ببندقية السيّد لوبيك.

قتلَ السُّمّانة وهي على الأرض أمام أنف الكلب المتربّص. في البداية ظلّ ينظر باتّجاهها من دون أن يميّز تلك الكرة الصغيرة بلونها الذي يحاكي لون التراب.

- تراجعْ قليلاً إلى الوراء، قال له السيّد لوبيك، أنت قريب منها أكثر ممّا يجب.

غير أنّ أصهب تصرّف غريزيّاً، تقدّم خطوة أخرى إلى الأمام، سدّد وأطلق عن كثب. فأدخل الكرة الرماديّة الصغيرة في قلب التراب. ولم يجد من دجاجة الأرض المسحوقة المتلاشية سوى بضع ريشات ومنقار مُدمًّى.

مع ذلك فإنّ ما يكرّس صيتَ صيّادٍ شاب، هو اصطياد دجاجة أرض، ولا بدّ أن يكون لهذه العشيّة أثرُها البالغ في حياة أصهب.

الغسق، كما يعلم الجميع، مخادع. إذْ تُحرّك الأشياء خطوطها الضبابيّة. ويُمسي لطنين ذبابةٍ ما لاقترابِ الرّعد من إرباك. لذا بلغ التأثرّ بأصهب أنْ تمنّى أن يُنجز مهمّته بسرعة.

كانت طيور السمّان العائدة من المروج تنتشر بسرعة بين أشجار السنديان. فيسدّد كي يعوّد عينه. ويمسح بكُمّه ضبابة البخار التي تغشى ماسورة البندقيّة. بينما تتراكض أوراق صفراء، هنا وهناك.



أخيراً، طارت دجاجتان من دجاج الأرض، وقد أثقل منقاراهما الطويلان حركةَ طيرانهما. وبدأ الطائران يتلاحقان عاشقيْن، ويحلّقان فوق الغابة المرتجفة.

أصدر الطائران ذلك الصوت المميّز؛ بِيتْ، بِيتْ، بِيتْ، كما قال السيّد لوبيك سابقاً، لكنّ الصوت كان من الخفوت بحيث شكّ أصهب في تحليقهما باتّجاهه. تحرّكت عيناه بحيويّة. فرأى شبحيْن يمرّان فوق رأسه. أسند أخمص البندقيّة إلى صدره وأطلق النار، كيفما اتّفق، في الهواء.

سقط أحد الطائريْن أرضاً، يسبقه منقاره، وبدّدَ الصدى صوت الفرقعة القويّة في أرجاء الغابة.

التقط أصهب دجاجة الأرض التي انكسر جناحها، حرّكها مزهوّاً واستنشق رائحة البارود.

هرع بيرام، مستبقاً السيّد لوبيك الذي لم يُسرع أو يتأخّر أكثر من المعتاد.

ـ لن يصدّق، قال أصهب، مهيّئاً نفسه لتلقّي المديح.

لكنّ السيّد لوبيك أبعد الأغصان، وظهر، ليقول بصوت هادئ مخاطباً ابنه الذي لا تزال تخرج منه بقايا دخان:

- قلْ لي، لِمَ لم تُصِب الطائرين معاً؟

الصنّارة

أصهب منهمك في بَرْش سمكاته، وهي من نوع الغجوم النّهري، والزّينابة الفضّيّة، وبعض فراخها الصغيرة أيضاً. يبرشُها بسكّين، يشقّ بطنها، ويفرقع مثانتها الشفّافة جدّاً تحت كعب حذائه. ويجمع الأحشاء للقطّ. يعمل متلهّفاً، مستغرقاً، منحنياً على الدّلو المبيضّ بالرغوة، ومتحاشياً الابتلال.

جاءت السيّدة لوبيك تلقي نظرة.

- أخيراً، قالت، لقد اصطدتَ لنا اليوم ما يكفي لإعداد طبقٍ من السمك اللذيذ. أنت لا تعود أخرق عندما تريد ذلك.

داعبتْ رقبته وكتفيْه، لكنّها، ما إنْ سحبت يدها حتّى تعالت منها صيحات الألم.

كان شصّ صنّارة مغروزاً في إصبعها.

هُرِعَت الأخت إرنستين، ولحقها الأخ الأكبر فيليكس، وسرعان ما تلاهما السيّد لوبيك نفسه.

- دعينا نرى، قالوا.

لكنّها ضغطت إصبعها في تنّورتها، ما بين ركبتيها، جاعلةً الشصّ يغوص أكثر. وفيما تولّى الأخ الأكبر فيليكس والأخت إرنستين مساندتها، أمسك السيّد لوبيك بذراعها ورفعَها عالياً، فتمكّن الجميع من رؤية الإصبع. لقد اخترقها الشصّ.

حاول السيّد لوبيك اقتلاعه.

- أوه! لا! ليس هكذا! قالت السيّدة لوبيك بصوت حادّ.

وفي الواقع كان الشصّ قد التفّ على الإصبع بحلقته وسنّه، من جهتين.

وضع السيّد لوبيك نظّارته التي بلا ماسكتيْن.

- فظيع! قال، ينبغي كَسْر الشصّ!

وكيف يمكن كسره؟ فمع كلّ جهد يبذله السيّد لوبيك، وهو غير قادر على الإمساك بالإصبع جيّداً، تقفز السيّدة لوبيك وتولول. هل يتمّ اقتلاع قلبها، حياتها؟ زِدْ على ذلك أنّ الشصّ مصنوع من فولاذ جيّد المسْقى.

- إذن، قال السيّد لوبيك، يجب قطع اللحم.

ثبّت نظّارته وأخرج مطْواته وبدأ يُمرّر الشفرة التي لم تُسنّ جيّداً، على الإصبع بهدوء. لكنها لم تخترقْه. ضغطَ؛ نضحَ عرقه. انبجس الدم.

- آي! أوه! آي! أوه! صاحت السيّدة لوبيك، وارتعد الجميع.

- أسرعْ أكثر يا أبي، قالت الأخت إرنستين.

- لا تعقّدي الوضع أكثر! قال الأخ الأكبر فيليكس، مخاطباً أمّه.

عيل صبر السيّد لوبيك. مزقت المطواة[5] اللحم ونشرتْه كيفما اتّفق، وبعد أن تمتمت السيّدة لوبيك: « جزّار! جزّار!» فقدت وعيها، من حسن الحظّ.

استغلّ السيّد لوبيك الفرصة. ابيضّ لونه وازداد انفعاله، وشرع يقطّع ويُشَرِّح ويحفر اللحم، حتى لم يبقَ من الإصبع إلاّ جرح مدمّى سقط منه شصّ الصنّارة.

أُفْ!

وفي تلك الأثناء لم يكن لأصهب أيّ دور. فمع انطلاق أوّل صرخة لأمّه أسرع هارباً. جلس على السلّم ووجهه بين يديه محاولاً تفسير ما حدث. من المؤكّد أنه في إحدى المرّات، وبينما كان يرمي صنّارته بعيداً، ظلّ الشصّ عالقاً في ظهره.



- الآن لم أعد استغرب لماذا كفّ السمك عن عضّ الطعم، قال.

استمعَ إلى أنين أمّه، ولم يتألّم من سماعه في البداية. ألم يصرخ بدوره بعد قليل بصوت ليس أقلّ قوة من صوتها، بل بأقصى ما استطاع، حتى بحّ صوته، لكي تقتنع أمّه بأنها انتقمت منه، وتتركه في حال سبيله؟

سأله بعض الجيران الذين جلبهم الفضول:

- ماذا يحدث، يا أصهب؟

لم يُجبْ بشيء؛ أغلق أذنيه، واختفى رأسه الأصهب، بينما اصطفّ الجيران أسفل السُلّم منتظرين الأخبار.



أخيراً تقدّمت السيّدة لوبيك. كانت شاحبة مثل امرأة نفْساء، ومزهوّة بكونها تعرّضت لخطر كبير، عارضةً أمامها إصبعها الملفوفة بعناية. لقد انتصرت على بقايا الألم. وها هي ذي تبتسم للحضور، وتطمئنهم ببضع كلمات، وتخاطب أصهب بهدوء:

- لقد أوجعتَني، لا بأس يا صغيري العزيز. أوه! أنا لست حاقدة عليك؛ ليست غلطتك.

لم تسبق لها مخاطبة أصهب بهذه النبرة قطّ. لذلك فوجئ ورفع جبينه. رأى إصبع أمه ملفوفةً بالقماش والخيوط، رآها نظيفة، سمينة ومربّعة، مثل دمية طفلة فقيرة. فامتلأت عيناه الناشفتان دموعاً.

انحنت السيّدة لوبيك. فما كان منه إلاّ أن لجأ إلى ردّ فعله المعتاد في الاختباء وراء كوعه. لكنها كانت في منتهى الشّهامة إذْ قبّلتْه أمام الجميع.

لم يعد يفهم. فشرع يبكي بدموع غزيرة.

- ألم أقلْ لك إنّ كل شيء قد انتهى، وإنّي سامحتُك؟ ألهذه الدّرجة تظنّني شرسة؟

تضاعف نحيب أصهب.

- يا له من أحمق! كأنّه يخشى الذّبح! قالت السيّدة لوبيك للجيران المتأثّرين بطيبتها.

وجاءت لهم بشصّ الصنّارة ففحصوه بفضول. وأكّد واحد منهم أنّه من الصنف نمرة 8. وشيئاً فشيئاً استعادت طلاقتها في الكلام، وحكت مأساتها للجمهور بلسان ذلق.

- آه! كان يمكنني قتله لحظتها لو لم أكن أحبّه كثيراً. وذلك الشصّ اللعين! ما أخبثه! ظننتُ أنّه كان يرفعني نحو السماء.

اقترحت الأخت إرنستين دفنه بعيداً في أقصى الحديقة، داخل حفرة، ثمّ دعْس التراب فوقه.

- آه! كلاّ! قال الأخ الأكبر فيليكس، سأحتفظ به أنا. أريد الصّيد به. هيّا! إنّ شصّاً مغمّساً في دم أمّي سوف يكون مناسباً جدّاً! وما أكثر الأسماك التي سوف أستخرجها! كلّ سمكة بحجم فخذ!

وشرع يهزّ أصهب الذي مازال مذهولاً من إفلاته من العقاب، ويبالغ في شعوره بالندم والتوبة، ويُصدر من حنجرته أنيناً أبحّ، ويغسل بدفعات كبيرة من الماء تلك البقع النخاليّة في وجهه البشع المتميّز بتقبّل الصفعات.

القطعة النقديّة

1

السيّدة لوبيك: ألم تُضِعْ شيئاً، يا أصهب؟

أصهب: كلاّ، يا أمّي.

السيّدة لوبيك: لماذا تقول كلاّ، فوراً، من دون أن تتأكّد؟ اقلبْ جيوبك أوّلاً.

أصهب: يسحب بِطانَتَيْ جيبيْه وينظر إليهما متدلّيتيْن مثل أذنيْ حمار، آه! نعم، يا أمّي! أعيديه لي.

السيّدة لوبيك: أعيد إليك ماذا؟ إذن فقد أضعتَ شيئاً؟ كنت أسألك بالصدفة وحزرتُ! ماذا أضعتَ؟

أصهب: لا أدري.

السيّدة لوبيك: حذار! ستلجأ إلى الكذب. وأنت الآن شارد مثل سمكة دائخة. أجبْ ببطء. ماذا أضعتَ؟ هل هو خذروفك؟

أصهب: بالضبط. لم أتذكّره. إنّه خذروفي، نعم، يا أمي.

السيّدة لوبيك: كلاّ يا عزيز ماما. ليس خذروفك. فقد صادرتُه منك الأسبوع الماضي.

أصهب: إذن، فهو سكّيني.

السيّدة لوبيك: أيّ سكّين؟ من الذي أعطاك سكّيناً؟

أصهب: لا أحد.

السيّدة لوبيك: يا لَطفلي المسكين، لن نتمكّن من التوصّل إلى حلّ. كأنّني أُرعبك، مع أنّنا وحيدان. أستجوبك بلطف. وأيّ طفل يحبّ أمّه يصارحها بكلّ شيء. أراهن أنّك أضعت قطعتك النقديّة. لا أعرف عنها شيئاً لكنّني متأكّدة. لا تُنكرْ. أنت تكذب. أنفك يفضحك.

أصهب: يا أمّي، كانت تلك القطعة النقديّة ملْكي. أعطاني إيّاها عرّابي يوم الأحد. ولقد أضعتُها؛ هذا أمر سيّئ يغيظني، لكنّني سوف أنساه. وأنا، على أيّة حال، لم أعد أرغب فيها؛ قطعة نقدية ناقصة أو زائدة، لا فرق!

السيّدة لوبيك: يا لَلمُجادِل البارع! بينما أنا أستمع إليك مثل امرأة طيبة. أنت، إذنْ، لا تقدّر تعب عرّابك الذي يدلّلك كثيراً، والذي سوف يتملّكه الغضب؟



أصهب: لنتخيّلْ يا أمّي أنّي أنفقتُ قطعتي النقديّة كما أردت. هل كان ينبغي عليَّ مراقبتها طيلة حياتي؟

السيّدة لوبيك: كفى، أيّها المُداجي! لم يكن يتوجّب عليك إضاعة تلك القطعة ولا تبذيرها من دون إذْني. لم تعدْ بحوزتك الآن؛ عوّضْها، اعثُرْ عليها، اصنعْها، تدبّرْ أمرك. أسرعْ ولا تُطِل التفكير.

أصهب: نعم، يا ماما.

السيّدة لوبيك: وأنا أمنعك من القول: «نعم، يا ماما»، وتصَنُّع الطرافة؛ والويل لك إنْ سمعتكَ تترنّم، أو تصفّر بأسنانك، وتقلّد سائق عربةٍ بلا هموم. هذا لن ينطلي عليَّ أبداً.

2

أصهب يتجوّل الآن في ممرّات الحديقة بخطوات صغيرة. يتأوّه. يبحث قليلاً ويستنشق كثيراً. وعندما يشعر أن أمّه تراقبه، يتوقّف عن الحركة أو ينحني ويفتّش بين نباتات الحُمّيض والرمل الناعم. أمّا عندما يعتقد باختفاء أمّه فإنّه يكفّ عن التفتيش. يتابع التظاهر بالمشي وأنفه في الهواء.

أين عساها تكون، القطعة النقدية الملعونة تلك، يا ترى؟ هناك في الأعلى، على الشجرة، في قاع عشّ قديم؟

أحياناً يتمكّن أناس شاردو الذّهن، لا يبحثون عن شيء، من العثور على قطع ذهبية. وقد حدث ذلك فعلاً. لكنّ أصهب، مهما انبطح وتجرجر أرضاً، وأنهك ركبتيْه وأظافره، لن ينجح في العثور حتّى على إبرة.

بعد أن أضناه التّيه، والأمل في ما لا يعرف، أقرّ أصهب بالعجز، وقرّر العودة إلى البيت كي يعاين مزاج أمّه. فربّما هدأت وتمّ التخلّي عن القطعة النقديّة لتعذّر العثور عليها.

لم يرَ السيّدة لوبيك فناداها على استحياء.

- أمّي، إيه! أمّي!

لم تردّ مطلقاً. لقد خرجت لتوّها تاركة دُرْج منضدتها المخصّصة لأشغالها اليدويّة، مفتوحاً. وما بين كبب الصوف، والإبر، والبكرات البيضاء والحمراء والسوداء، لمح أصهب بضع قطع نقديّة.

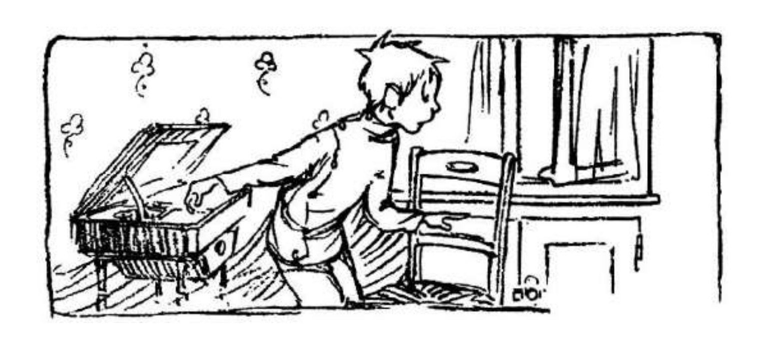
بدا عليها القِدم وهي هناك. كأنّها كانت تنام، وقلّما تستفيق، مدفوعةً من زاوية إلى أخرى، مختلطة ولا تُعدّ.

قد تكون ثلاث قطع أو أربع، أو ثماني. يصعب عدّها.

ينبغي قلْب الدُّرْج، خلط كُبب الصوف. وكيف يتمّ التوصّل إلى برهان؟

مع هذا الحضور للبديهة الذي لا يخذله إلاّ في المناسبات الكبرى، اتّخذ أصهب قراره، ومدّ ذراعه، وسرق قطعة نقديّة وغادر المكان.

ولخشيته أن تُكتشَف فعلته، وضع حدّاً للتردّد والنّدم والعودة المحفوفة بالمخاطر إلى منضدة الأشغال.



سار رأساً، مندفعاً بقوّة تمنعه من التوقّف، جاب ممرّات الحديقة واختار الموضع، و«أضاع» فيه القطعة، ثمّ طمرها بكعبه، انبطح على بطنه والأعشاب تدغدغ أنفه، وزحف حسب هواه، ورسم دوائر غير منتظمة مثلما يتمّ الدوران بعينين معصوبتين، حول الشيء المخبّأ، عندما يضرب الشخص الذي يُدير الألعاب البريئة ربلة ساقه قلقاً ويصرخ:

- حذار! إنها مُحرقة، مُحرقة!

أصهب:

- ماما، ماما، وجدتُها.

السيّدة لوبيك: أنا أيضاً.

أصهب: كيف؟ ها هي ذي.

السيّدة لوبيك: ها هي ذي.

أصهب: هيّا دعيني أراها.

السيّدة لوبيك: دعني أراها، أنت.

أصهب: يُظهر قطعته. والسيّدة لوبيك تُظهر قطعتها. يعاينهما أصهب ويقارن بينهما ويجهّز جملته:

- هذا أمر طريف. أين وجدتِها أنتِ، يا أمّي؟ أنا وجدتها في ذلك الممرّ، تحت شجرة الإجّاص. لقد دعستُها عشرين مرّة قبل أن ألحظها. كانت تلمع. في البداية ظننتُ أنّها قطعة ورق أو زهرة بنفسج بيضاء. فلم أجرؤ على التقاطها. لا شكّ أنها سقطت من جيبي ذات يوم بينما كنت أتقلّب على العشب ممثّلاً دور المجنون. انحني قليلاً، يا أمّي، عايني الموضع الذي كانت تختفي فيه تلك الماكرة، هنا مخبؤها. وهي تستطيع التبجّح الآن بما سبّبَتْ لي من إرباك.

السيّدة لوبيك: لا أقول لا.

أنا وجدتُها في سترتك الأخرى. ورغم ملاحظاتي ما زلت تنسى تفريغ جيوبك عندما تغيّر ثيابك. أردتُ أن ألقّنك درساً في الانضباط. وتركتك تبحث كي أعلّمك، إذْ ينبغي الاعتقاد بأنّ من جدَّ وجدَ دائماً، وها إنّك تملك الآن قطعتين لا قطعة واحدة. لقد صرت غنيّاً. والمهمّ حُسن العاقبة، لكنني أحذّرك بأن المال لا يصنع السعادة.

أصهب: إذن، أستطيع الذهاب للّعب، يا أمّي!

السيّدة لوبيك: كما تشاء. تمتّعْ، فلن تشبع من اللّهو ما دمت صغيراً. خذْ القطعتين النقديّتيْن.

أصهب: أوه! يا أمّي، واحدة تكفيني، بل وأرجوك أن تخبئيها لي حتّى أحتاج إليها. سيكون في ذلك لطف منك.

السيّدة لوبيك: كلاّ، تعاشروا كالأحباب وتعاملوا كالأغراب. احتفظْ بقطعتيْك. كلتاهما ملكك، قطعة العرّاب، والأخرى، قطعة شجرة الإجّاص، إلاّ إذا طالب بها مالكُها. من عساه يكون؟ لا أنفكّ أفكّر، وأنت هل لديك فكرة؟

أصهب: في الواقع، لا. ولا يهمّني ذلك، سوف أفكّر في هذا الأمر غداً. إلى اللقاء، يا أمّي، وشكراً.

السيّدة لوبيك: انتظرْ! ربّما كان البستانيّ؟

أصهب: هل تريدين أن أذهب إليه لأسأله؟

السيّدة لوبيك: في هذه النقطة، يا صغيري، يجب أن تساعدني. لنفكّرْ. لا يمكننا اتّهام والدك بالإهمال وهو في هذا العمر. أختك تضع ما توفّره في حصّالة نقودها. أخوك لا يملك حتّى الوقت الذي يمكن أن يضيع فيه ماله، فالفلس يذوب بين أصابعه فوراً.

وبالتالي قد أكون أنا المعنيّة.

أصهب: أنا أستغرب ذلك، يا أمّي، فأنت تنظّمين أشياءك بعناية فائقة.

السيّدة لوبيك: أحياناً يخطئ الكبار مثل الصغار. وباختصار سوف أتأكّد. وفي كلّ الأحوال هذا يخصّني وحدي. كفانا كلاماً. وكفاك قلقاً؛ أسرعْ للعب يا صغيري السمين، لا تبتعدْ كثيراً، بينما أذهب أنا لإلقاء نظرة على دُرْج منضدة أشغالي.

همّ أصهب بالانطلاق، لكنّه التفت، تابع أمّه وهي تبتعد لحظة. وفي النهاية تجاوزَها بغتة، واجهَها في صمت، وقدّم لها خدَّه.

السيّدة لوبيك: ترفع يدها اليمنى مهدِّدَةً بالبدء بمعاقبته بشدّة.

أعرف أنك كذّاب، لكنّني لم أكن أعتقد أنك بهذه القوّة. الآن صرت تكذب كذباً مضاعفاً. أقرُّ دائماً أنّ من يبدأ بسرقة بيضة ينتهي بسرقة بقرة.

وبعد ذلك يقتل أمَّه.

وانطلقت الصّفعة الأولى.

الأفكار الشخصيّة

كان السيّد لوبيك والأخ الأكبر فيليكس، والأخت إرنستين وأصهب، ساهرين قرب المدفأة حيث يشتعل جذعٌ بعروقه، والكراسيّ الأربعة تتأرجح على قوائمها الأماميّة. كانوا يتناقشون، وفي غياب السيّدة لوبيك، بسَطَ أصهب أفكاره الشخصيّة.

- بالنسبة لي، قال، أرى أنّ الألقاب العائلية لا تعني شيئاً. وهكذا فأنت، يا أبي، تعرف كم أحبّك! والحال أنني لا أحبّك بوصفك والدي؛ بل أحبّك لأنّك صديقي. وبالفعل، ليست لك أيّ جدارة في أن تكون والدي، لكنني أنظر إلى صداقتك باعتبارها حظوة سامية لستَ مديناً لي بها ومع ذلك فإنّك تمنحني إيّاها بسخاء.

- آه! أجاب السيّد لوبيك.

- وأنا، وأنا؟ سأل كلٌّ من الأخ الأكبر فيليكس والأخت إرنستين.

- نفس الشيء، قال أصهب. الصدفة هي التي جعلتكما أخي وأختي. فلِمَ أكون ممتنًّا لكما؟ من الذي يتحمّل مسؤولية الخطأ، إذا كنّا ثلاثتنا من آل لوبيك؟ لم يكن بإمكانكما منع ذلك من الحدوث. ولا جدوى من اعترافي بقرابة لا إراديّة. غير أنني أشكركما؛ أنتَ، يا أخي، بسبب حمايتك لي، وأنتِ، يا أختي، بسبب عنايتك الفعّالة.

- نحن في خدمتك، قال الأخ الأكبر فيليكس.

- من أين جاء بهذه التأمّلات العائدة إلى العالم الآخر؟ قالت الأخت إرنستين.

- وما أقوله، أضاف أصهب، أؤكّده بشكل عامّ، ولا أقصد شخصيات معيّنة، ولو كانت أمّي هنا لكرّرتُ ما قلت في حضورها.

- لن تكرّر ذلك مرّتين، قال الأخ الكبر فيليكس.

- أيّ سوء تجد في حديثي؟ أجاب أصهب. حذار من تشويه أفكاري! أنا لا تنقصني المشاعر، وأحبّكم أكثر مما يبدو لكم في الظاهر. غير أنّ هذه المحبّة، بدلاً من أن تكون مبتذلة وغريزيّة ورتيبة، هي مقصودة وعقلانيّة، ومنطقيّة. نعمْ منطقيّة، هذا هو المصطلح الذي كنت أبحث عنه.

- متى تتخلّى عن هوَس استخدام الكلمات التي لا تفقه لها معنى، قال السيّد لوبيك وهو يقف متهيّئاً للنوم، وعن الرغبة في تلقينها للآخرين رغم صغر سنّك؟ لو سبق للمرحوم جدّك أن سمعني أتفوّه بربع هذا الهُراء الذي تهذي به، لسارع كي يبرهن لي، بركلة وصفعة، أنّني لست سوى ابنه الصغير دائماً.

- لا بدّ من الحديث لتمضية الوقت، قال أصهب وقد بدأ القلق يخالجه.

- ومن الأفضل السكوت، قال السيّد لوبيك، وفي يده شمعة.

ثمّ اختفى. وتبعه الأخ الأكبر فيليكس مخاطباً أصهب:

- لي الشرف، يا رفيق الأيام الجميلة!

وما لبثت الأخت إرنستين أن وقفت وعلّقت بدورها:

- عمتَ مساءً، يا صديقي العزيز!

مكث أصهب وحيداً، محتاراً.

بالأمس نصحه السيّد لوبيك أن يتعلّم كيف يُفكّر:

- يُقال؟ من هذا الذي قال؟ قال له السيّد لوبيك. لا وجود للمبنيّ للمجهول. المجهول يعني لا أحد. أنت تبالغ في استعراض ما تسمعه. حاول التفكير قليلاً بنفسك. عبّرْ عن أفكار شخصيّة، حتى لو لم تكن بحوزتك سوى فكرة واحدة في البداية.

وبما أنّ أول فكرة جازف بها استُقْبِلتْ استقبالاً سيئاً، فقد غطّى أصهب النار، وصفَّ الكراسيّ على امتداد الجدار، وحيّا ساعة الحائط، ثمّ انسحب باتجاه الغرفة التي تشرف على سُلَّم القبو والتي يُطلق عليها اسم غرفة القبو.



وهي غرفة باردة ومستحبَّة صيفاً. ويمكن أن تُحفظ فيها الطرائد بسهولة لمدّة أسبوع كامل. وآخر أرنب برّيّ تمّ اصطياده ما زال ينزف من أنفه في صحن. وتوجد سلال ملأى بالحبوب للدجاج، ولا يتعب أصهب أبداً من تحريكها بذراعيه العاريتيْن اللتيْن يغطّسهما في الحبوب حتّى الكوعين.

كانت ثياب كلّ أفراد العائلة المعلّقة في المشجب تثيره في العادة. كأنّما هناك أشخاص انتحروا بعد أن اعتنوا بترتيب جزماتهم بانتظام، في الأعلى، فوق لوح الخشب.

لكنّ أصهب لا يشعر بالخوف هذه الليلة. لم يُلْقِ بنظرة تحت السرير. ولم يرتعب من القمر ولا من الظلال، ولا من بئر الحديقة الذي يبدو كأنه محفور هناك عمداً من أجل مَنْ يرغب في إلقاء نفسه فيه انطلاقاً من النافذة.

كان يمكنه الشعور بالخوف لو فكّر في الخوف، لكنّه لم يعد يفكّر فيه. نسي، وهو في قميص النوم، ألاّ يمشي إلاّ على عقِبَيْه كي يُخفِّفَ من إحساسه ببرودة البلاط الأحمر.

في الفراش، وبعيْنيْن شاخصتيْن في تبثّراتِ الجبس الرطب، واصل تطوير أفكاره الشخصيّة، التي تُسمّى كذلك لأنه ينبغي على المرء الاحتفاظ بها لنفسه.

عاصفة الأوراق

مرّ وقت طويل وأصهب يراقب، حالِماً، أعلى ورقة في شجرة الحَوْر.

ظلّ يتأمّل في الفراغ وينتظر تحرُّكَها.

تبدو منفصلةً عن الشجرة، كأنها تعيش منعزلة، وحدها، من دون ذيل يربطها، حرّة.

كلّ يوم تتذهّب مع أوّل شعاعات الشمس وآخِرها.

منذ منتصف النهار، وهي تحافظ على ثبات ورقة ميتة، حتى لتبدوَ لطخة أكثر منها ورقة، إلى درجة أنّ أصهب فقدَ صبره، وشعر بالضيق، عندما بدرت منها إشارة في نهاية المطاف.

تحتها ورقة قريبة أدّت الإشارة نفسها. وكرّرتْها أوراق أخرى، ناقلةً إيّاها للأوراق المجاورة التي سرعان ما نقلتْها بدورها.

كانت إشارة إنذار، لأنَّ حاشية قلنسوة داكنة اللّون، لاحت في الأفق.

بدأت شجرة الحَوْر ترتعش! تحاول التحرّك، واستبعاد طبقات الهواء الثقيلة التي تزعجها.

انتقل اضطرابها إلى شجرة الزّان، والسنديان، وبعض أشجار الكستناء، وتبادلت كلُّ أشجار الحديقة الإنذار، من خلال الإيماءات، بأنّ قلنسوة العاصفة، تتوسّع في السماء، وتدفع إلى الأمام بحافّتها البارزة والداكنة.

أثارت في البداية أغصانَها الرقيقة وأسكتت طيورَها؛ الشحرور الذي كان يُطلق نغمة كيفما اتّفق، مثل حبّة بازلاّء نيئة، والتّرغِلّة التي شاهدها أصهب قبل قليل، تسكب، في ارتجاج، هديل

عُنقها الملوّن، والعقعق الذي لا يطاق، بذيله الذي لا يمكن أن يكون إلاّ لعقعق.

بعد ذلك حرّكت مجَسّاتها الضخمة لتُرعب العدوّ.

تابعت القلنسوة الداكنة غزوها البطيء.

وشيئاً فشيئاً، غطّت السماء، وطردت لازَوَرْدَها، سدّت الثقوب التي قد تسمح بمرور الهواء، وهيّأت لاختناق أصهب. كانت تبدو أحياناً كأنّها تضعف، تحت ثقل وزنها، وتوشك على السقوط فوق القرية؛ لكنّها توقّفت عند سنّ قبّة الجرس، خشية أن يمزّقها.

وها هي ذي الآن جدّ قريبة، غير محتاجة إلى ما يثيرها أكثر، بحيث بدأ الهلع وارتفعت الجلبة.

مزجت الأشجار كُتَلَها المضطربة والغاضبة. تخيّل أصهب أنّ في داخلها أعشاشاً ملأى بعيون مستديرة ومناقير بيضاء. ذرى الأشجار تهوي ثمّ تنتصب مثل رؤوس استيقظت فجأة. الأوراق تتطاير في مجموعات، وسرعان ما تعود خائفة، مدجّنة، وتحاول التشبّث من جديد. الأوراق الرقيقة التي تعود لأشجار السنْط تتنهّد؛ وتلك التي تعود لأشجار البتولا تشتكي؛ وأوراق الكستناء تصفّر، بينما أوراق الزّرَاوَنْد المعترشة تهدر متلاحقة على الجدار.

وإلى الأسفل قليلاً، تهزّ أشجار التفّاح القصيرة ثمارها، وتخبط الأرض بضربات مكتومة.

وتحتها، تنزف شُجيرات عنب الدبّ بقطرات حمراء، وأشجار الكشمش بقطرات لها لون الحبر.

تحتها أيضاً تحرّك رؤوس الكرنب السَّكْرَى آذانها التي تشبه آذان الحمير، بينما تتضارب عساليج البصل الغاضبة فيما بينها، وتهشّم كراتها الممتلئة بذوراً.

لماذا؟ ماذا أصابها؟ وما الذي يعنيه ذلك؟ لا رعد، لا بَرَد. لا برق، ولا قطرة مطر. لا شيء غير السّواد العاصف من فوق، هذا الليل الصامت في أوج النهار، الذي يُرعبها، ويُروِّع أصهب.

الآن انتشرت القلنسوة كلُّها تحت السماء المحجوبة.

بدأت تتحرّك، وأصهب يدرك ذلك؛ فهي متكوّنة من غيوم متحرّكة ستنساب وتتلاشى: ويتمكّن هوَ من رؤية الشمس من جديد. مع ذلك، ورغم أنها تشكّل سقفاً للسماء كلّها، أحسّ أنها تضغط على رأسه، عند الجبين. أغمض عينيه فعصّبت جفنيْه بشكل مؤلم.

حشر إصبعين في أذنيْه أيضاً. غير أنّ العاصفة وصلت إلى داخله، آتيةً من الخارج، بضوضائها وزوابعها.

التقطت قلبَه مثل ورقة مرميّة في شارع.

دعكتْه، جعّدتْه، دحرجتْه، قلّصتْه.

ولم يبقَ لأصهب عمًا قريب، سوى كُرَيَّةِ قلب.

التّمرُّد

1

السيّدة لوبيك: يا صغيري أصهب العزيز، أرجوك، هلاّ تلطّفتَ بالذهاب إلى الطاحونة لتجلب لي نصف كيلو من الزبدة، اركضْ بسرعة. سوف ننتظر عودتك قبل جلوسنا إلى مائدة الطعام.

أصهب: كلاّ، يا أمّي.

السيّدة لوبيك: لماذا تجيب، كلاّ، يا أمّي؟ بلى سوف ننتظرك.

أصهب: كلاّ، يا أمّي، لن أذهب إلى الطاحونة.

السيّدة لوبيك: ماذا؟ لن تذهب إلى الطاحونة، ماذا تقول؟ انظرْ مَن التي تطالبك بذلك... هل أنت تحلم؟

أصهب: كلاّ، يا أمّي.

السيّدة لوبيك: هيّا، يا أصهب، لم أعدْ أستوعب. أنا آمرك بالذهاب إلى الطاحونة فوراً لجلب نصف كيلو من الزبدة.

أصهب: لقد سمعتُ. لكنّني لن أذهب.

السيّدة لوبيك: إذن، أنا من يحلم؟ ماذا يحدث؟ هذه أوّل مرة في حياتك ترفض طاعتي.

أصهب: نعم، يا أمّي.

السيّدة لوبيك: ترفض طاعة أمّك.

أصهب: نعم، أرفض طاعة أمّي، يا أمّي.

السيّدة لوبيك: هذا ما ينقصني، هل ستذهب؟

أصهب: كلاّ، يا أمّي.

السيّدة لوبيك: هلاّ سكتَّ وذهبتَ؟

أصهب: سأسكت، لكنّني لن أذهب.

السيّدة لوبيك: هلاّ حملتَ الصحن وذهبت؟

2

سكت أصهب، ولم يتحرّك.

- هذا تمرّد! صاحت السيّدة لوبيك على السّلّم، رافعةً ذراعيْها.

وبالفعل كانت هذه هي المرّة الأولى التي يقول فيها أصهب لأمّه لا. لو كانتْ قد أزعجته قبل ذلك، على الأقلّ، لكان هناك مبرّر! لو كان منهمكاً في اللعب! لكنّه كان جالساً على الأرض، يحرّك إبهاميْه، وأنفه في الهواء، ويغمض عينيْه ليحفظهما في الدفء. وها هو ذا الآن يتفرّس فيها، مرفوع الرأس. لم تعد تفهم شيئاً مما يحدث. نادت الآخرين كما لو أنّها تطلب النجدة.

- إرنستين، فيليكس، هناك جديد! تعالا لتريا مع والدكما وأغاتا أيضاً. لن يكون أحدٌ زائداً عن اللّزوم.

وحتى القلّة القليلة من عابري الشارع يمكنهم التوقّف.

كان أصهب يتوسّط الباحة، مبتعداً قليلاً، وقد تفاجأ بتأكيد ذاته في مواجهة الخطر، ومندهشاً أكثر لأنّ السيّدة لوبيك نسيت أن تضربه. كانت لحظة من الخطورة بحيث بدت أمّه منعدمة الحيلة.

لقد تخلّت أيضاً عن حركاتها المعتادة في إخافته، وعن نظراتها الحادّة والملتهبة مثل جمرة. لكنّها، ورغم جهودها، انفرجت شفتاها تحت وطأة غيظ داخليّ انطلق منها كأنّه صفير.

- يا أصدقائي، قالتْ، ترجّيتُ أصهب بكلّ أدب أن يقدّم لي خدمة بسيطة، أن يذهب لدى تجواله حتّى الطاحونة، احزروا بمَا أجابني؛ اسألوه، قد يذهب بكم الظنّ إلى أنني أفتري عليه.

حزرَ كلّ واحد وأعفى أصهب من التكرار.

اقتربت منه إرنستين الرقيقة وهمست في أذنه:

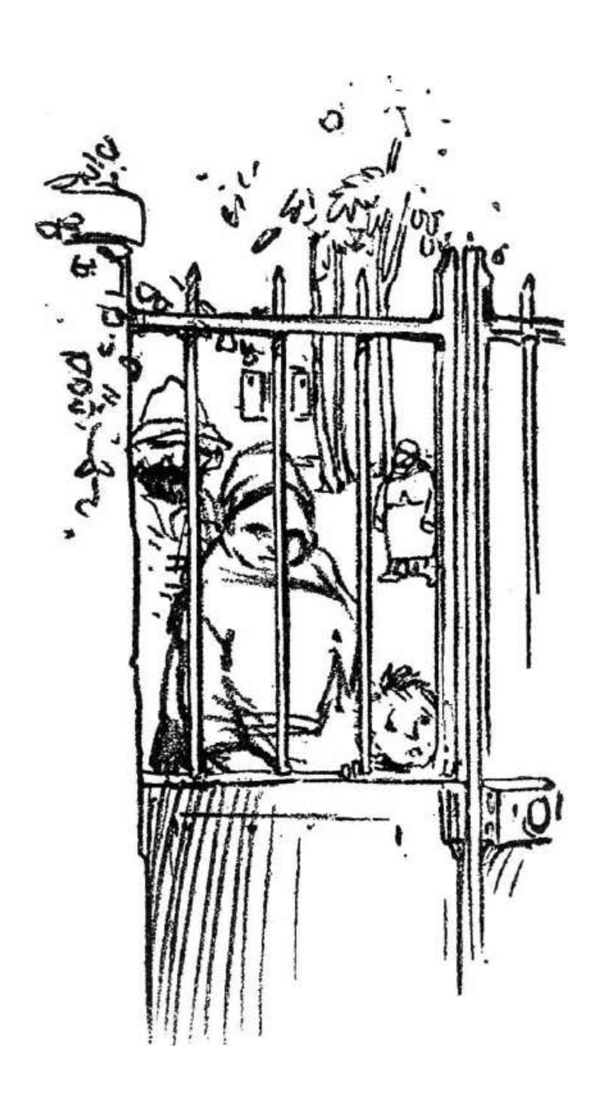
- احترسْ، سيحدث لك مكروه. أطِعْ، اسمعْ كلام أختك التي تحبّك.

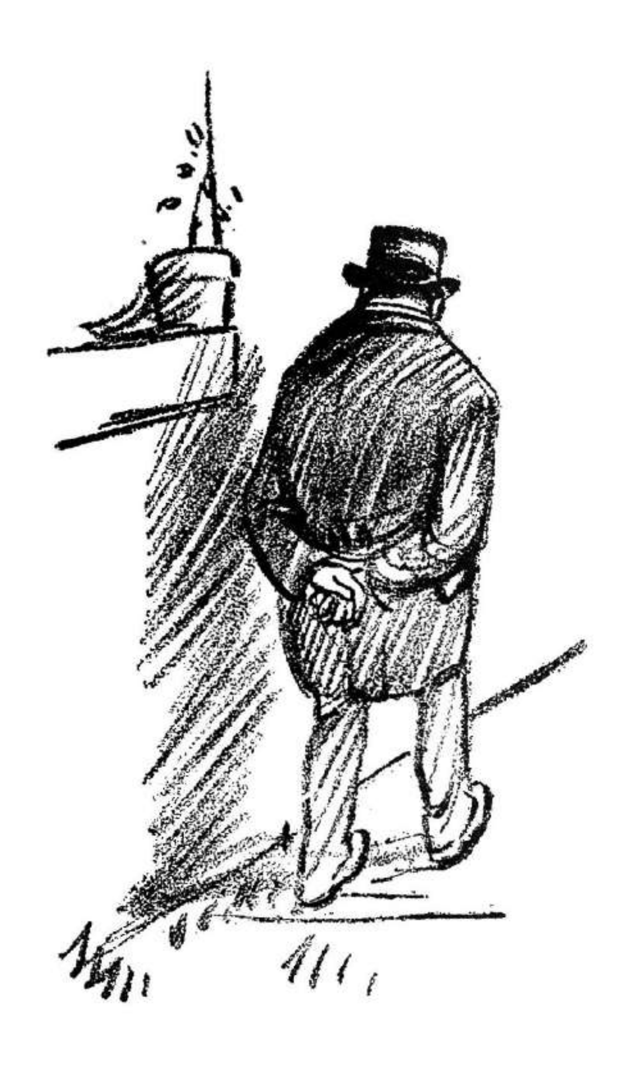
الأخ الأكبر فيليكس ظنّ أنه في عرض مسرحيّ. هو الذي لا يتخلّى عن مكانته لأحد، لم يُدركْ أنّ عصيان أصهب يعني أنّ قسماً من الخدمات سوف ينزل على كاهله، هو الابن البكر، ومع ذلك فقد شجّعه. بالأمس كان يستهين به ويصفه بالدّجاجة المبلولة. أمّا اليوم فهو ينظر إليه بوصفه ندّاً، ويحترمه أيضاً. وها هو ذا يقفز ويستمتع كثيراً. قالت السيّدة لوبيك مصعوقةً:

- بما أنّها نهاية العالم المقلوب، فأنا لن أتدخّل أكثر. أنا أنسحب. فليأخذْ غيري الكلمة ويتعهّد بترويض الوحش. إنّني أترك الابن والأب، ولْيتدبّرا الأمر.

- أبي، قال أصهب، وهو لا يزال في أوج الأزمة، بصوت مخنوق، لأنه لم يتعوّد بعد، إذا طالبتَني أنت بالذهاب لجلب نصف كيلوغرام زبدة من الطاحونة، سوف أذهب من أجلك، من أجلك فقط. أرفض الذهاب من أجل أمّي.

بدا السيّد لوبيك محرَجاً أكثر منه راضياً بتفضيل أصهب له، ومنزعجاً من اللجوء إلى ممارسة سلطته لأنّ مجموعة متفرّجين استدعوه بخصوص نصف كيلو زبدة.





ولشعوره بالضيق، مشى بضع خطوات على العشب، رفع كتفيْه، أشاح بظهره، وعاد إلى البيت.

وتوقّفت القضيّة هنا، مؤقّتاً.

كلمة الختام

في المساء، وبعد تناول العشاء الذي لم تظهر فيه السيّدة لوبيك، المريضة والنائمة، والذي سكت فيه الجميع ليس وفق العادة فقط، بل بسبب الانزعاج أيضاً، عقد السيّد لوبيك منديله ورماه على المائدة قائلاً:

ـ ألا يأتي أحد للتنزّه معي على الطريق القديمة؟

فهم أصهب أنّ السيّد لوبيك اختار هذه الطريقة لدعوته. وقف بدوره، نقل كرسيّه تحت الجدار، كما اعتاد، وتبع والده بكلّ وداعة.

في البداية سارا صامتيْن. لم يأت السؤال المحتوم فوراً. ظلّ أصهب يدرّب ذهنه على التكهّن بذلك السؤال والعثور على الإجابة. ها هو ذا مستعدّ الآن، ومتزعزع، لكنّه غير نادم على شيء. لقد بلغ به انفعال اليوم حدّاً لم يعد يخشى بعده ما هو أقوى. وحتّى نبرة صوت السيّد لوبيك الذي بدأ يتّخذ قراره، كانت تطمْئنه.

السيّد لوبيك: ماذا تنتظر لتفسِّر لي تصرّفك الأخير الذي أحزن أمّك؟

أصهب: أبي العزيز، لقد تردّدْتُ كثيراً، لكنْ كان لا بدّ من الحسم. أعترف: لم أعد أحبُّ أمّي.

السيّد لوبيك: آه! وما السبب؟ ومنذ متى؟

أصهب: بسبب كلّ شيء، ومنذ أن عرفتُها.

السيّد لوبيك: آه هذا شيء محزن، يا بنيْ! على الأقلّ، احْكِ لي ماذا فعلتْ لك.

أصهب: سوف يطول الحديث. ومن جهتك، ألمْ تلاحظ شيئاً؟

السيّد لوبيك: بلى، لاحظتُ أنّك تحرد أحياناً.

أصهب: إنّني أغتاظ عندما يُقال عنّي إنّني أحرد. أصهب لا يمكنه، طبيعيّاً، أن يختزن حقداً جدّيّاً. إنّه يحرد. اتركوه. وعندما ينتهي، سوف يخرج من ركنه، وقد هدأ وانبسطت أساريره. ولا تتظاهروا بالاهتمام به على وجه الخصوص. هذا غير مهمّ.

أستميحك عذراً، يا أبي، هذا ليس مهمّاً إلاّ بالنسبة للوالد والوالدة والغرباء. أحرد أحياناً، نعم، أو أتظاهر بذلك، لكنْ يحدثُ أيضاً، أؤكّد لك، أنني أغتاظ بقوّة ومن كلّ قلبي، ولا أعود أنسى الإساءة.

السيّد لوبيك: بلى، بلى، سوف تنسى كلَّ ذلك التنكيد.

أصهب: كلاّ، كلاّ. أنت لا تعلم كلّ شيء، لا تمكث إلاّ قليلاً في البيت.

السيّد لوبيك: أنا مضطرّ للسفر.

أصهب، بنوع من الزهو: العمل هو العمل، يا أبي. انشغالاتك تأخذ منك كلّ شيء، أمّا أمّي، وقد آن الأوان لقول ذلك، فليس لها من كبش فداء سواي. إنّني أحترزُ من لومك أنت. كان يكفي، بالتأكيد، أن أشي بها لكي تحميني أنت. سوف أروي لك كلّ ما حدث سابقاً، بالتدريج، بما أنّك تطالب بذلك. وسوف تتأكّد بنفسك إنْ كنت أبالغ أم لا، وإنْ كنتُ أتذكّر جيّداً. لكنّني أرجوك، في كلّ الأحوال، أن تنصحني، يا أبي العزيز.

أتمنّى الابتعاد عن أمّي.

ما رأيك، وما هي أبسط طريقة؟

السيّد لوبيك: أنت لا تراها إلاّ شهرين في السنة، أثناء العطلة.

أصهب: ماذا لو تسمح لي بقضائهما في القسم الداخليّ. سوف يساعدني ذلك على التحسّن.

السيّد لوبيك: هذا امتياز مخصّص للتلامذة الفقراء. وقد يظنّ الناس أنّني أتخلّى عنك. وفوق ذلك لا ينبغي أن تفكّر في نفسك فقط. سيكون غيابك بالنسبة لي موحشاً.

أصهب: سوف تأتي لرؤيتي، يا أبي.

السيّد لوبيك: التنزّه من أجل المتعة يكلّف غالياً، يا عزيزي أصهب.

أصهب: سوف تستغلّ سفراتك الاضطراريّة وتعرّج لزيارتي.

السيّد لوبيك: كلاّ، لقد عاملتك حتّى الآن كما أعامل أخاك وأختك، مع الاعتناء بعدم التمييز بينكم. وسوف أواصل.

أصهب: إذن، فلنترك دراستي. أخرِجْني من المدرسة الداخليّة، بتعلّة أنّها تكلّفك كثيراً، وسوف أختار مهنة.

السيّد لوبيك: أيّ مهنة؟ هل تريد أن أضعك تتمرّن عند إسكافيّ مثلاً؟

أصهب: عنده أو عند غيره. سوف أضمن مصروفي وأكون حرّاً.

السيّد لوبيك: فات الأوان، يا عزيزي أصهب. هل تراني ألزمْتُ نفسي بتلك التضحيات الكبيرة في تعليمك، لكي تدقّ مساميرَ في النّعال؟

أصهب: وإذا قلت لك، يا أبي، إنّني حاولتُ الانتحار؟

السيّد لوبيك: أنت تُبالِغ! يا أصهب.

أصهب: أقسم لك بأنّني حتّى البارحة، وليس أبعد، كنت لا أزال أرغب في الانتحار.

السيّد لوبيك: ولكنْ ها أنت أمامي. هذا يعني أنّك لم تعد راغباً في ذلك. لكنّك تذكر محاولة انتحارك الفاشلة معتدّاً بنفسك. تعتقد أنّ الموت لم يراود غيرك. سوف تُودي بك الأنانيّة، يا أصهب. أنت لا تفكّر إلاّ بنفسك، وتظنّ أنّك وحيد في الكون.

أصهب: أبي، إنّ أخي سعيد، وأختي سعيدة، وإذا كانت أمّي لا تلتذّ بتنكيدي، كما تقول، فأنا مستعدّ للسكوت. أخيراً بالنسبة لما يخصُّك، أنت تهيمن، والكلّ يخشاك، حتّى أمّي. ولا تستطيع القيام

بشيء يكدّر سعادتك. وهذا يبرهن على وجود أُناس سعداء بين بني البشر.

السيّد لوبيك: يا ابنَ البشر الصغيرَ ذا الرأس المحدود، ما أضيق تفكيرك! هل تستطيع قراءة أعماق القلوب بوضوح؟ هل صرت تفهم كلّ شيء؟

أصهب: أفهم أشيائي الخاصّة، نعم، يا أبي، أو أحاول على الأقلّ.

السيّد لوبيك: إذنْ، يا عزيزي أصهب، عليك التخلّي عن طلب السعادة. أنبّهك، لن تكون أسعد منك الآن أبداً، أبداً، أبداً.

أصهب: هذا يبشّر بالخير.

السيّد لوبيك: عليك بالخضوع، وتحصين نفسك حتّى تصير راشداً وسيّداً على نفسك، فتتمكّن آنذاك من الانعتاق، وإنكارنا، وتغيير عائلتك، أو على الأقلّ تغيير طباعك ومزاجك. وحتّى يحين ذلك الوقت، يتوجّب عليك التغلّب على ذاتك، اطمرْ حساسيتك وراقب الآخرين، بمن فيهم أولئك الذين يعيشون بالقرب منك؛ سوف يسلّيك ذلك؛ وأنا أضمن لك مفاجآت فيها عزاء.



أصهب: لا شكّ أنّ للآخرين همومهم أيضاً. لكنني سوف أرثي لحالهم غداً. أمّا اليوم فأنا أطالب بالعدْل بالنسبة لي. هل هناك مصير أسوأ من مصيري؟ لديّ أمّ. وهذه الأمّ لا تحبّني، وأنا لا أحبّها.

- وهل تحسبني أحبّها بدوري؟ قال السيّد لوبيك بغتةً بعد أنْ فقد صبره.

لدى سماع هذه الكلمات، رفع أصهب عينيه نحو أبيه. نظر مطوّلاً إلى وجهه القاسي، ولحيته الكثيفة حيث انسحب الفم إلى الداخل كأنّه استحى من إفراطه في الكلام، وجبينه المغضّن، ومجرى الدّمع المتجعّد في مآقيه، وجفنيْه المنسدلتيْن كأنه يسير نائماً.

امتنع أصهب عن الكلام لحظة. كان يخشى تلاشي كلّ شيء؛ فرحته السرّيّة وهذه اليد التي يُمسِك بها ويكاد يحتفظ بها بالقوّة.

بعد ذلك شدّ قبضته، وهدّد القرية الغافية هناك في العتمة، وصرخ بها مفخِّماً كلامه:

- أيتها المرأة السيّئة! ها قد اكتمل ضدّك كلُّ شيء. أنا أكرهك.

- اسكتْ، قال السيّد لوبيك، إنّها أمّك، قبل كلّ شيء.

- أوه! أجاب أصهب، وقد استعاد بساطته وحذره، لا أقول هذا لأنّها أمّي.

«ألْبوم» صُوَر أصهب

1

لو أنّ غريباً تصفّح «ألْبوم» صور عائلة لوبيك، لَما منع نفسه من الاندهاش. فهو يرى الأخت إرنستين والأخ الأكبر فيليكس، في لقطات مختلفة، واقفيْن، جالسيْن، في ثياب جميلة أو نصف عارييْن، فرحيْن أو عابسيْن، وسط ديكورات رائعة.

- وأصهب!

- كانت لديّ صور له عندما كان صغيراً جدّاً، تجيب السيّدة لوبيك، لكنّه كان من الجمال بحيث صار الجميع ينتزعون منّي صوره، ولم أتمكّن من الاحتفاظ منها ولو بصورة واحدة.

والحقيقة أنّ أصهب لا تُلتقط له صوَرٌ أبداً.

2

صار يُدعى أصهب إلى درجة أنّ عائلته تردّدتْ كثيراً قبل تذكّر اسمه الأوّل بالمعموديّة.

- لمَ تنادونه أصهب؟ هل يعود ذلك إلى شعره الأصفر؟

- روحه أشدّ اصفراراً من شَعره بكثير، تجيب السيّدة لوبيك.

3

علامات أخرى فارقة:

وجه أصهب لا يمكن أن يكون شاهداً لصالحه قطّ.

أصهب له أنف محفور مثل كومة التراب في بيت الخُلْد.

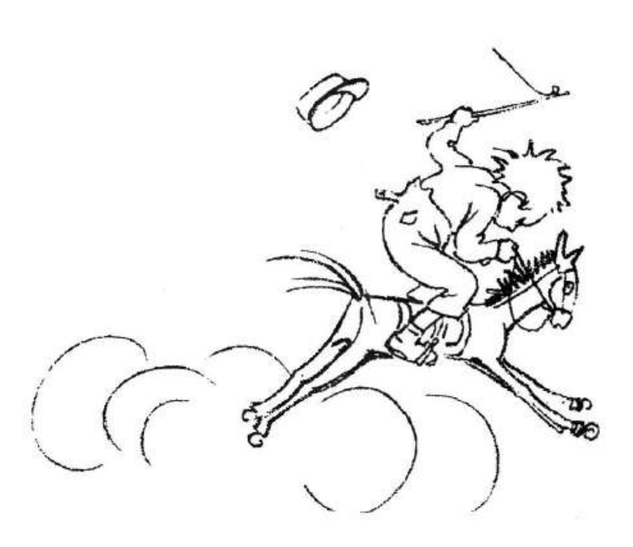
أصهب له دائماً قشور طريّة في أذنيْه لا تختفي مهما أُزيلَ منها.

أصهب يرضع ويذيب الثلج على لسانه.

أصهب يقدح الولاّعة أو يمشي بطريقة سيئة حتى لَيخيَّل لمن يراه أنّه أحدب.

رقبة أصهب تغطيها طبقة درن زرقاء فيبدو كأنه يضع قِلادة أو طوقاً.

وأخيراً فإنّ لأصهب رائحة غريبة ولا تفوح منه رائحة المسك.



4

ينهض الأول، وقت نهوض الخادمة. وفي صباحات الشتاء، يقفز من فراشه قبل بزوغ النهار، ويتفحّص الساعة بيديْه، من خلال جسّ عقربيْها بأنامله.

عندما تكون القهوة والشوكولا جاهزتيْن، يتناول قطعة من أيّ شيء بإبهامه.

5

عندما يتمّ تقديمه إلى شخص ما، يُدير رأسه، يمدّ يده من الخلف، يُبدي ضجره، ويثني ساقيه ويخدش الجدار.

وإذا سُئلَ:

- هلاّ قبّلْتني، يا أصهب؟

أجاب:

- أوه! لا حاجة إلى ذلك!

6

السيّدة لوبيك: عليك أنْ تردّ عندما يكلّمك شخص، يا أصهب.

أصهب (بصوتٍ غير مفهوم): نيا....م، يا.....مّي.

السيّدة لوبيك: يبدو لي أنني نبّهتك سابقاً إلى أنّ الأطفال عليهم ألاّ يتكلّموا وأفواههم ملأى.

7

لا يستطيع منع نفسه من وضع يديْه في جيبيْه. ومهما سحبَهما بسرعة لدى اقتراب السيّدة لوبيك، يفعل ذلك متأخّراً جدّاً، دائماً. وقد انتهى بها الأمر، ذات يوم، إلى خياطة الجيبيْن مع يديْه.

8

- مهما حدث لك، قال له عرّابه بودّ، لا ينبغي أن تلجأ إلى الكذب. لأنّ الكذب عادة سيّئة جدّاً، ثمّ إنّ حبل الكذب قصير.

- نعم، أجاب أصهب، لكنّنا بالكذب نربح القليل من الوقت.

9

الأخ الأكبر فيليكس الكسول، تمكّن أخيراً من إنهاء دروسه بشقّ الأنفس.

وها هو ذا يتمطّى ويتنفّس الصعداء مرتاحاً.

- فيمَ ترغب، سأله السيّد لوبيك. أنت في عُمر يمكّنك من اختيار قرارات حياتك. ماذا ستعمل؟

- ماذا! أما زالت أمامي جهود أخرى؟ قال الأخ الأكبر فيليكس.

10

يلعبون لعبة بريئة.

الآنسة بيرْتْ هي المعنيّة بالأسئلة:

- لأنّ لها عينيْن زرقاويْن، قال أصهب.

فيعلو الصياح.

- جميل! يا له من شاعر غزل لطيف!

- أوه! أجاب أصهب، لم أنظرْ إليهما. قلت ذلك كما قد أقول أيّ شيء آخر. إنّها صيغة اصطلاحيّة، شكل من أشكال البلاغة.

11

في معارك الرشق بكريات الثلج، يُشكّل أصهب بمفرده فريقاً كاملاً. إذْ يخشاه الجميع، ولقد انتشر صيته في البعيد لأنّه يضع أحجاراً داخل كريات الثلج.

يُسدّد نحو الرأس: فهذا أقصر طريق لتحقيق الهدف.

وعندما يعمّ الجليد وينزلق الآخرون، يهيّئ لنفسه مزلقة خاصة بجوار الثلج، تكون فوق العشب.

في لعبة قفز الخرفان، يُفضّل البقاء في الأسفل، نهائيّاً.

في لعبة الحواجز يترك الآخرين يمسكون به كما يشاؤون غير مكترث بحرّيّته.

وفي لعبة الغمّيضة، يختبئ بشكل محكم إلى حدّ أنّ الجميع ينسونه.

12

الأبناء يقيسون قاماتهم.

من النظرة الأولى، يبدو الأخ الأكبر فيليكس خارج المسابقة، ويتجاوز طول الآخرين برأسه. لكن، يتوجّب على أصهب والأخت إرنستين، رغم أنّها ليست إلاّ فتاة، أن يقفا جنباً إلى جنب. وبينما تعمد الأخت إرنستين إلى الوقوف على أطراف أصابعها، يلجأ أصهب، الذي لا يريد إحباط أحد، إلى الغشّ والانحناء قليلاً، وذلك من أجل إضافة القليل إلى الفارق الصغير.

13

قدّم أصهب هذه النصيحة إلى الخادمة أغاتا:

- لكي تنالي قبول السيّدة لوبيك، تكلّمي بالسوء عنّي.

لكنْ، هناك حدّ لكلّ شيء.

وهكذا فإنّ السيّدة لوبيك لا تتحمّل إساءة امرأة أخرى، غيرها، لأصهب.

ذات مرّة سمحتْ إحدى الجارات لنفسها بتهديده، فهرعت السيّدة لوبيك، غضبت وخلّصتْ ابنها الذي بدا مشرقاً بعرفان الجميل.

- والآن، تعال كي نصفّي حساباتنا! قالت له.

14

ـ الملاطفة! ما معنى ذلك؟ سأل أصهب بييرْ الصغير الذي تدلّلـه أمّه.

ولمّا أدرك المعنى تقريباً، صاح:

ـ ما أتمنّاه، أنا، هو التقاط قطع من البطاطا المقليّة من الصحن، بأصابعي، ولو مرّة واحدة، ومصّ نصف حبّة الدرّاق حيث توجد النواة.

وفكّر قليلاً:

ـ لو أنّ السيّدة لوبيك التهمتْني بالمداعبات، لبدأتْ بأنفي.

15

أحياناً يتعب كلٌّ من الأخت إرنستين والأخ الأكبر فيليكس من اللهو بألعابهما، فيُعيرانها بطيبة خاطر إلى أصهب الذي يأخذ، بهذه الطريقة، نصيباً صغيراً من سعادة كليهما، ويبني سعادته بتواضع.

وهو لا يتظاهر بالكثير من المتعة أبداً، خشية أن يسترجعا ألعابهما.

16

أصهب: إذن، فأنتِ لا تجدين أذنيَّ طويلتيْن جدّاً؟

ماتيلد: أجدهما طريفتيْن. هلاّ أعرْتني إياهما؟ أرغب في ملئهما رملاً لأصنع بعض الفطائر.

أصهب: ولا شكّ أن تلك الفطائر ستنضج جيّداً إذا أشعلتْ أمّي أذنيَّ، مسبقاً.

17

ـ هلاّ توقّفتَ! يا ويلك إنْ سمعتُك مرّة أخرى! إذن، فأنت تحبّ أباك أكثر منّي؟ هذا ما تكرّره السيّدة لوبيك هنا وهناك.

ـ أمكثُ في مكاني، لا أقول شيئاً، وأقسم لك أنّني لا أحبّ أحدكما أكثر من الآخر، يجيب أصهب بصوته الباطنيّ.

18

السيّدة لوبيك: ماذا تفعل، يا أصهب؟

أصهب: لا أدري، يا أمّي.

السيّدة لوبيك: هذا يعني أنك ترتكب حماقة جديدة. هل تتعمّد ذلك دوماً؟

أصهب: لم يكن ينقصني إلاّ ذلك.

19

حسِبَ أصهب أنّ أمّه تبتسم له، فابتسم لها بدوره مزهوّاً.

غير أنّ السيّدة لوبيك التي لم تكن تبتسم إلاّ لنفسها ساهمةً، غيّرت تعبير وجهها بغتةً فصار رأسها من خشب أسود تلوح فيه عينان من عنبر.

احتار أصهب ولم يعرف أين يختفي.

20

ـ هلاّ ضحكتَ بتهذيب، ومن دون ضجيج، يا أصهب؟ تقول السيّدة لوبيك.

عندما نبكي، ينبغي أن نعرف لماذا نبكي، تقول أيضاً.

كما تقول: وماذا تريدونني أن أفعل؟ إنّه لا يذرف ولو دمعة واحدة عندما نصفعه.

21

وتقول أيضاً:

- إذا كانت هناك لطخة في الهواء أو بعرة في الطريق، فهي لن تكون إلاّ له.

- عندما تكون في رأسه فكرة، فهي لا تغادر رأسه أبداً.

هو من العجرفة بحيث يمكنه أن يحاول الانتحار كي يثير الانتباه.

22

وبالفعل، حاول أصهب الانتحار في دلو ماء بارد، حيث غطّس أنفه وفمه وحافظ عليهما داخل الماء ببطولة، حتّى فاجأتْه ضربة على الرأس فقلبت دلو الماء على فردتي حذائه وأعادتْ أصهب إلى الحياة.

23

تارةً تقول السيّدة لوبيك عن أصهب:

- هو مثلي، غير خبيث، وأقرب إلى البلاهة منه إلى اللؤم، ولا يتحلّى بذرّة ذكاء.

وطوراً يحلو لها الاعتراف بأنّه قد يصير شخصاً رفيع المقام، فيما بعد، إذا لم تأكله صغارُ الحيوانات المفترسة.

24

أصهب يحلم:

- لو حصل وأُهْديتُ، مثل أخي الأكبر فيليكس، حصاناً خشبيّاً في رأس السنة، لقفزْتُ فوقه وهربت.

25

يصفّر أصهب، خارج البيت، ليُثبتَ لنفسه أنه لا يبالي بشيء. لكنّ رؤية السيّدة لوبيك التي تتبعه تقطع صفيره. وهذا شيء مؤلم، كما لو أنها تُكسر بين أسنانه صفّارة صغيرة ثمنها فلس.

بالمقابل، ينبغي الاعتراف بأنّه عندما ينتابه الفُواق، يكفي أن تظهر أمامه كي تُخلّصَه منه.

26

يقوم بدور الوسيط بين أبيه وأمّه.

يقول السيّد لوبيك: يا أصهب، هناك زرّ ناقص في هذا القميص.

يحمل أصهب القميص إلى السيّدة لوبيك التي تقول له:

- هل أنا في حاجة إلى أوامرك، يا بييرو؟

لكنّها تتناول سلّة أشغالها وتثبّت الزرّ.

27

- لو كان أبوك ميتاً، تصيح السيّدة لوبيك بأصهب، لكنتَ وجّهتَ لي ضربة قاضية منذ زمن، وغرزتَ هذه السكّين في قلبي، وتخلّصتَ منّي!

28

- تمخّطْ، تقول السيّدة لوبيك في كلّ لحظة.

يتمخّط أصهب، بلا كلل، ماسحاً طرف أنفه. وإذا أخطأ الهدف يعيد الكرّة.

ومن المؤكّد أنّه عندما يُصاب بالزّكام تدهنه السيّدة لوبيك بالشمع، وتلطّخه به إلى حدّ إثارة غيرة الأخت إرنستين والأخ الأكبر فيليكس. لكنّها تُضيف عمداً من أجله:

- هذا أحسن من لا شيء. إنّه يحرّك مخّ الرأس.

29

لمّا كان السيّد لوبيك يشاكس أصهب منذ الصباح، فقد أفلت الأخير هذا الكلام الفاحش:

- دعْني وشأني يا أحمق!

وسرعان ما خُيِّل له أنّ الهواء يتجمّد حوله، وأنّ هناك ينبوعَيْ نار في عينيه.

تلعثم مستعدّاً للدخول تحت الأرض بإشارة واحدة.

غير أنّ السيّد لوبيك نظر إليه طويلاً، طويلاً، ولم يُعْطِ الإشارة.



عمّا قريب ستتزوّج الأختُ إرنستين. وسمحت لها السيّدة لوبيك بالتنزّه مع خطيبها تحت مراقبة أصهب.

- اسبقْنا، تقول له، اقفزْ!

يسبقهما أصهب. ويجهد نفسه كي يركض ويقفز، قاطعاً مسافاتِ كلب. وعندما ينسى الابتعاد ويخفّف من سرعته، يسمع، رغماً عنه، صوت قبلات مختلسة.

يسعل.

وهذا يثير أعصابه. فجأةً، وهو يشرف على صليب القرية، رمى بقبّعته أرضاً، دعسَها بقدمه، وصاح:

- أمّا أنا فلن يُحبَّني أحد!

في اللحظة ذاتها، انتصبت السيّدة لوبيك التي لا تشكو من الصمم، مفزعةً خلف الجدار، وعلى شفتيها ابتسامة.

فأضاف أصهب مضطرباً:

- ما عدا أمّي.

Notes

[←1]

حيوان يعيش تحت الأرض ويتغذّى على الحشرات.

[←2]

خطيبان ورجلا سياسة رومانيّان، عاش بروتوس Brutus في القرن الأوّل قبل الميلاد، وعاش كاتون Caton مخضرماً في القرن الثاني والثالث قبل الميلاد.

[←3]

هذا الفصل الصّغير مهمّ في تصوير تطوّر شخصيّة أصهب، ولذا أُبقيَ عليه، بشيء من التصرّف، رغمَ ما في بدايته من قسوة. يتسلّى أصهب بقتلِ قطّ، ثمّ يندم على ذلك ويرى في منامه كوابيس (المحرّر).

[←4]

العرّاب شخص يتعهّد الطفل برعاية معنويّة إلى جانب الأبوين، ويكون الطفل بمثابة ابنه بالتبنّي أو ابنه الروحيّ.

[←5]

المطواة سكّين جيّب.